قضية قدم العالم ونقدها
بالأدلة العلمية الحديثة

إعداد الدكتور

هشام عبد العزيز هلال الأزهري

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدياط الجديدة

جامعة الأزهر – مصر

قضية قدم العالم ونقدها بالأدلة العلمية الحديثة

هشام عبد العزيز هلال الأزهري
قسم: العقيدة والفلسفة، **كلية:** الدراسات الإسلامية والعربية بدمياط الجديدة، **الجامعة:** الأزهر، **المدينة:** دمياط الجديدة، **الدولة:** جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني: HishamAzhari.33@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

يعالج البحث قضية قدم العالم والقائلين به في الفلسفات المختلفة، قديمًا وحديثًا، فأما القدماء فهم أصناف: فمنهم من يقول بقدم مادة العالم وصورته، ومن يقول بوجود خالق له من مادة قديمة، ومنهم من يقول إن الله مجرد علة غائية ومحركة للعالم، ومنهم يقول بالفيض، وأما المحدثون فمنهم من يقول بالصدفة، ومنهم من يقول بتطور العالم من خلية أولى قديمة، وبين الفريقين الأخيرين علاقة بينة، وضحتها من خلال البحث، وقمت بالرد عليهم جميعًا بأصنافهم ، أتي البحث في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة: في **المقدمة:** أهمية البحث ومنهجه وخطته، **المبحث الأول:** القضية في الفلسفات القديمة، **المبحث الثاني:** القضية في العصر الحديث، **المبحث الثالث:** الرد على القائلين بالقدم بالأدلة العلمية الحديثة، الخاتمة: وفيها أهم النتائج ، اعتمدت في البحث المنهج التحليلي النقدي، في عرض آراء القائلين بالقدم في الفلسفات القديمة، والعصر الحديث، وما استندوا عليه من براهين وحجج، ونقدها من جنس أدلتهم، بشهادة علماء العصر الحديث ، توصلت من خلال البحث للنتائج التالية: القول بأن أصل الوجود مادة قديمة لا دليل عليه من عقل أو علم- القائلون بالقدم الزماني والحدوث الذاتي الخلاف معهم لفظي لا معنى- القول بالفيض محدثٌ في دين الله- بطلان القول بأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد- القول بالصدفة يتنافى مع قانون الصدفة نفسه- الساكن لا يتحرك بذاته بحسب قانون القصور الذاتي، فلا يصدر منه خلية حية ولا ميتة- القوانين والنظريات العلمية الحديثة تنسف القول بقدم العالم وبقاء المادة وعدم أوليتها.

الكلمات المفتاحية: القدم، الفيض، الصُدفة، التطور، الخلية.

The issue of the eternity of the world and its criticism with modern scientific evidence.

Hisham Abdel Aziz Hilal Al-Azhari
Department: Doctrine and Philosophy,
College: Islamic and Arabic Studies in New Damietta,
University: Al-Azhar, City: New Damietta,
Country: Arab Republic of Egypt.
Email: HishamAzhari.33@azhar.edu.eg

Abstract

The research addresses the issue of the eternity of the world and those who advocate it in various philosophies, both ancient and modern. As for the ancients, they are categories: some of them say that the world's matter and its form are eternal, some say that there is a creator for it from an eternal matter, and some say that God is merely a final and moving cause of the world, and some say by effusion. As for the moderns, some of them say by chance, and some of them say that the world evolved from an ancient first cell, and there is a clear relationship between the last two groups, which I clarified through the research, and I responded to all of them in their categories , The research came in an introduction, three topics, and a conclusion: In the introduction: the importance of the research, its methodology, and its plan. The first topic: the issue in ancient philosophies. The second topic: the issue in the modern era. The third topic: responding to those who say eternity with modern scientific evidence. The conclusion: in which the most important results are , I adopted in the research the analytical critical approach, in presenting the views of those who say eternity in ancient philosophies, and the modern era, and what they relied on from proofs and arguments, and criticizing them from the same kind of their evidence, with the testimony of modern era scientists ,

Through the research, I reached the following results: the saying that the origin of existence is an ancient matter has no evidence from reason or science - those who say the temporal eternity and the self-occurrence the disagreement with them is verbal without meaning - the saying by effusion is innovated in the religion of Allah - the invalidity of the saying that the one does not issue from it except one - the saying by chance contradicts the law of chance itself - the stationary does not move by itself according to the law of self-shortage, so it does not issue from it a living cell or a dead one - the laws and theories of modern science undermine the saying of the eternity of the world and the survival of matter and its non-primacy.

Keywords: Eternity, Effusion, Chance, Evolution, Cell.

مقدمة

الحمد لله الذي خلق السماوات بلا عمد وفتح لها أبوابًا، وبسط الأرض على ماء جمد لنسلك منها سبلا فجاجًا، وجعل لها من الجبال الرواسي أوتادًا، وخلق الإنسان من طين بعد أن لم يكن شيئًا مذكورا، وصل اللهم على الحبيب النبي المرسل، أشرف من اجتباه واصطفاه، وعلى من صحبه ووالاه، وسلم تسليمًا كثيرًا لا يدرك منتهاه ، وبعد...

فإن قضية وجود العالم وكيفية نشأته(١)، من أهم القضايا التي شغلت عقول الفلاسفة والمفكرين قديمًا وحديثًا؛ إذ إنها تتعلق بقضية أهم، وهي قضية وجود الله؛ لأن العالم خلقه وصنعته، فالقول بقدمه، أو أنه موجود بذاته بلا بداية، يعَمِّي على هذه القضية ويَكْفُرُها، ويمنح الملحدين سندًا وحجة لإنكار وجود الله، وهذا بخلاف القول بالحدوث، الذي يؤدي بالضرورة إلى القول بوجود الله وإيجاده للعالم، وإحداثه للعالم من العدم، من غير مادة سابقة عليه.

والقائلون بالقدم مذاهب شتى في القديم والحديث؛ فمنها ما يعتمد على بعض المقولات والفلسفات القديمة، كوجود مادة أولى قديمة عنها تكونت الموجودات بكيفيات مختلفة، أو القول بالتلازم بين العلة والمعلول في الوجود، وكون واجب الوجود مجرد علة غائية للعالم، ومحرك أول له، أو القول بأن العالم فاض عن الله بغير قصد واختيار، أو أنه قديم بالزمان لا بالذات، ومنها ما يعتمد على بعض النظريات العلمية الحديثة، كنظرية التطور التي ثار حولها كثير من الجدل، ومنها ما لا يركن إلى عقل أو منطق؛ غاية ما هنالك أن أصحابها ينكرون وجود الله، والقول بالحدوث يتناقض مع معتقدهم ويهدمها، فينفونه، ويقولون بالقدم لأوهى

(١) ليس المراد هنا تحقيق هذه القضية تحقيقًا شاملًا؛ فهذا مما يطول، وينأى بالبحث عن المقصود، بل المراد بيان أقوال المفكرين والفلاسفة في هذه القضية، باختصار، والرد على القائلين بالقدم بالأدلة العلمية الحديثة؛ حيث ثبت حدوث العالم بالأدلة الكلامية، وأن له خالقًا قديمًا ذا قدرة وإرادة واختيار، وهو الله ﷻ وحده؛ فكل ما سواه حادث.

سبب، أو بلا سبب أصلًا، كالقول بالصدفة والاتفاق.

وهذا البحث محاولة للرد على هذه المذاهب، ونقد القول بالقدم، خصوصًا في العصر الحديث، وبنفس أدلتهم وحججهم، التي يدعون الاستناد فيها على العلم الحديث، ونظرياته المكتشفة؛ لإلباسها ثوبًا علميًا مزركشًا؛ علها ترضي غرورهم، وتكون سندًا للملحدين في مواجهة أهل الإيمان، أو تخال على بعض المتشككين، فيثبتون على طريق الإلحاد، فيكونون على الدرب سواء.

وليس المقصود بهذا البحث الاستفاضة في عرض كل المذاهب القديمة والحديثة التي قالت بقدم العالم، واستقصاء كل الأدلة العلمية النظرية والتجريبية التي رد بها العلماء على هذه المذاهب، خصوصًا في العصر الحديث؛ فإن هذا مما يطول شرحه وعرضه، ويحتاج إلى مجلدات ضخمة في الطرح والرد، ولكننا نكتفي في هذا البحث بالإشارة إلى أصول تلكم المذاهب، واستعراض أهم الأدلة العلمية الحديثة، التي تفي بالغرض في نقد هذه المذاهب، التي تصب في صالح القول بالقدم؛ بحيث يثبت الحدوث بنفس منهج وأدلة الخصوم.

وقد اعتمدت في البحث المنهج التحليلي النقدي، في عرض آراء القائلين بالقدم في الفلسفات القديمة، والعصر الحديث، وما استندوا عليه من براهين وحجج، ونقدها من جنس أدلتهم، بشهادة العلم الحديث وعلماء عصره.

وقد جاء البحث في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة:

المقدمة: وفيها أهمية البحث ومنهجه وخطته.

المبحث الأول: القضية في الفلسفات القديمة.

المبحث الثاني: القضية في العصر الحديث.

المبحث الثالث: الرد على القائلين بالقدم بالأدلة العلمية الحديثة.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

والله ولي التوفيق وهو نعم المولى ونعم النصير

المبحث الأول

القضية في الفلسفات القديمة

تمهيد:

كثيرًا ما يقال: إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق، ومع التسليم الواقعي بأن هذا الكون موجود، فكيف نفسر وجود ونشأته؟ هناك أربعة احتمالات للإجابة عن هذا السؤال: إما أن يكون هذا الكون وهم وخيال، وهذا – خلف –؛ يتعارض مع التسليم الواقعي بوجوده، وإما أن يكون نشأ من تلقاء نفسه من العدم، وإما أن يكون أبديًا، ليس لنشأته بداية، وإما أن يكون له خالق.

أما الاحتمال الأول، فلا يقيم أمامنا مشكلة سوى مشكلة الشعور والإحساس؛ بمعنى أن إحساسنا بهذا الكون لا يعدو أن يكون وهمًا من الأوهام، ليس له ظل من الحقيقة، وهذا الرأي – نفسه – وهمي لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال.

أما الرأي الثاني، فهو لا يقل عن سابقه سخفًا وحماقة، ولا يستحق هو أيضًا أن يكون موضعًا للنظر أو المناقشة.

والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية، يشترك مع الرأي الرابع في القول بوجود خالق للكون، وذلك في عنصر واحد، هو الأزلية، وإذًا فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت، وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق، ويمكن الأخذ بأحد هذين الاحتمالين، ولكن قوانين العلم الحديث تمنع هذا وتحيله[1] – كما سنرى من خلال البحث –.

بالإضافة إلى المانع العقلي الذي يقرر استحالة نشأة شيء بذاته منذ القدم، ومع ذلك قال بالقدم بعض الفلاسفة والعلماء، قديمًا وحديثًا، ونوضح هنا مذاهب القدماء

(١) ينظر: الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات الأرض، أشرف على تحريره: جون كلوفر مونسيما، ترجمة: د. الدمرداش عبد المجيد سرحان، راجعه وعلق عليه: د. محمد جمال الفندي، ط/ دار القلم – بيروت – لبنان، ب ت، (ص: ١١، ١٢).

في القول بقدم العالم.

لقد تعددت هذه المذاهب، ويمكن تصنيف مذاهبهم في أصل العالم إلى ما يلي:

١- من يقول بأن العالم قديم بمادته وصورته وزمانه، وتراكيبه، ولا إله له أو مدبر، وهذا هو المذهب المادي بجميع أشكاله.

٢- القائلون بوجود العالم، ووجود قوة روحية غير مادية خلقته أو صبغته، أو هي قديمة معه، ولكنها تدبره، وهذا هو المذهب الروحي بجميع أشكاله، والاتجاه الأخير يضم المدارس أو الشُعب التالية:

أ- من يذهب إلى أن الله صانع للعالم كما يصنع النجار الكرسي من الخشب، أي أن الله صنع صور الأشياء وتراكيبها من مادة أولى قديمة، وأبرز مثل لهذا "أفلاطون" (٤٢٧ – ٣٤٧ ق م).

ب- من يقول بأن العالم قديم، والعالم قديم بمادته وصورته وزمانه، ولكن الله علة غائية، بمعنى أنه المتحرك على سبيل العشق، وأبرز من يمثل هذا الرأي "أرسطو" (ت: ٣٢٣ ق. م)، و "ابن رشد" (ت: ٥٩٥هـ –١١٩٨م)، على نحو ما؛ حيث قال بالقدم الزماني.

جـ- الذاهبون إلى أن الله أبدع العالم إبداعًا ليس من مادة قديمة، بل على سبيل الفيض، وهذا الفيض أزلي، فالعالم قديم بالزمان، محدث بالذات، ويمثل هذا الاتجاه الفيضيون مثل "أفلوطين"، (٢٠٥ – ٢٧٠م)، و"الفارابي" (٢٥٩ – ٣٣٩هـ)، و "ابن سينا" (٣٧٠ – ٤٢٨هـ)، وأمثالهم[١].

د – القائلون بأن العالم نشأ عن طريق الصُدفة والاتفاق، من مادة أولى، جرى الاختلاف حولها، وهم الطبائعيون الجدد في العصر الحديث.

وتفصيل هذه المذاهب عبر المطالب التالية:

(١) ينظر: حوار بين الفلاسفة والمتكلمين، د. حسام الدين الآلوسي، ط/ مطبعة الزهراء، بغداد – العراق - ط١، ١٩٦٧م، (ص: ١٠: ١٢).

المطلب الأول

المذهب المادي

ويمثلهم الفلاسفة الطبعيون الأوائل، الذين ذهبوا إلى أن أصل العالم مادة أو عدة مواد، تفرع عنها الكون والحياة، أمثال: "طاليس" (ت: ٥٤٨ ق. م) الذي قال بأن أصل الكون الماء، و "أنكسمندريس" (ت: ٥٤٦ ق. م)، وقال باللامتناهي، وهي مادة غير معينة كيفًا، ولا محدودة كمًا، وهي مزيج من الأضداد انفصلت واجتمعت بحركة المادة، وكان أول من قال بالتطور.

ثم "أنكسيمانس" (ت: ٥٢٥ ق. م)، وذهب إلى أن الهواء هو المادة الأولى، ثم "هيرقليطس" (ت: حوالي ٤٧٥ ق. م)، ورأى أن النار هي أصل الكون والمبدأ الأول، الذي تصدر عنه جميع الأشياء، وإليه تعود[١].

ثم جاءت مدرسة الطبعيين المتأخرين، ويمثلهم: "بارمنيدس" (ت: ٤٤٠ ق. م)، الذي رأى أن المعدوم ليس بشيء[٢]، فقال: «لا يمكن معرفة اللاوجود؛ لأنه مستحيل، ولا يمكن التعبير عنه باللغة؛ ذلك لأن الفكر واللغة يفترضان الوجود، فالوجود موجود، أما اللاوجود فليس شيئًا على الإطلاق»[٣].

وجاء "أنبادوقليس" (ت: ٤٣٠ ق. م)، من نفس المدرسة فلم يكتف بمادة واحدة، وإنما قال بالعناصر الأربعة: الماء والهواء والنار والتراب، وقد توصل في علم الحياة إلى نظريات تقترب كثيرًا النظريات الحديثة، في تطور الكائنات الحية، وأثر البيئة والانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح، على أساس آلي يعتمد على عمليتي

---

(١) ينظر المذهب المادي في: تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد – القاهرة، ط/٢، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، (ص: ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٤)، الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، د. أميرة حلمي مطر، ط/ دار المعارف، ١٩٨٨م، (ص: ٤٦، ٤٧، ٥٠، ٥١، ٥٨، ٥٩).

(٢) وهو بذلك يسبق متكلمي الأشاعرة في قولهم بعدم شيئية المعدوم، وإن لم يفطن إلى فكرة وجود خالق له، بل قال بقدم الوجود مطلقًا.

(٣) الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، د. أميرة حلمي مطر، (ص: ٩١).

الانضمام والانفصال بلا غاية، فسبق بذلك "دارون" (ت: ١٨٨٢م)، وأتباعه المحدثين[١] في القول بالتطور.

ثم جاء المذهب الذري على يد "لوقيبوس" (مجهول تاريخ الولادة والوفاة)، ولكنه كان معاصرًا لـــ "ديمقريطس" (ت: ٣٦٠ ق. م)، وقد اقتنعا معًا بدلالة التجربة على وجود ذرات صغيرة في الهواء، كالتي تتطاير في أشعة الشمس، فذهبا إلى أن الوجود لا ينشأ عن اللاوجود، كما أنه لا يصير إلى لا وجود؛ ومن هنا فالوجود ليس واحدًا، بل منقسم إلى ذرات لانهائية العدد، لها جميع خصائص الوجود، وهي تنفصل عن بعضها وتتجمع، فيحدث الكون والفساد، وهي متحركة بذاتها، وواحدها الجوهر الفرد، وهي حركة تسير بالمصادفة العمياء عند "ديمقريطس" فهو ينفي العلة الغائية، والعناية الإلهية، فكل شيء يسير بحتمية القانون الطبيعي[٢].

والضرورة هي الفكرة الأساسية في بناء فلسفته؛ فكل شيء مقدر من قبل بالضرورة، كل شيء كان، وكل ما هو كائن، وكل ما سوف يكون، فالجبرية أو الحتمية تسود كل شيء كمبدأ أساسي لطبيعة الكون نفسه؛ فكل شيء يتبع قوانين وجوده، وتاريخ الكون بأسره، ليس إلا نتيجة تدريجية، لا يمكن تجنبها لتركيبه الأصلي الأزلي[٣].

أما "لوقيبوس" فقد نفي المصادفة مع القول بالضرورة أيضًا؛ فهو يقول: لا شيء يحدث من لاشيء، ولكن يصدر كل شيء عن سبب وبالضرورة، وهو ينفي عدم الغائية والمصادفة، فيقول: «لا شيء يحدث بطريقة عشوائية، بل كل شيء يحدث بعلة وبالضرورة، ولا يقصد بالضرورة هنا القوة الخارجية المتعسفة، التي

(١) ينظر: المرجع السابق، (ص: ١٠١، وما بعد)، تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، (ص: ٥٠).
(٢) ينظر: تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، (ص: ٥٣، ٥٤)، الفلسفة اليونانية، د. أميرة حلمي مطر، (ص: ١١٠، ١١١)، تاريخ الفلسفة اليونانية من بدايتها حتى المرحلة الهللنسية، د. محمد عبد الرحمن مرحبا، الناشر: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط/١، ١٩٩٣م، (ص: ١٢٢: ١٢٥).
(٣) ينظر: فلسفة المصادفة، محمود أمين العالم، ط/ دار المعارف، ١٩٧٠م، (ص: ٥٣).

كان يستدعيها أسلافه، لكي تنتج أثرً لا يمكن تفسيره بدونها، وإنما يقصد الذرات في حركتها تخضع لقوانين وجودها هي نفسها؛ فالضرورة عنده إذن هي علة حركة الذرات، وليست قوة تعسفية، وإنما هي العملية الطبيعية للعلة والمعلول، فالذرات إنما تتحرك بحسب قوانين وجودها نفسها»[١].

ومن هذا المذهب (الذري الطبيعي) انبثقت جميع المبادئ الأساسية، التي تسود علم الطبيعة في العصور الحديثة، ما فتئت أن ازدادت نموًا واتساعًا، وهذه المبادئ هي مبدأ بقاء المادة، ومبدأ بقاء القوة؛ فلا شيء يخلق من العدم، ولا شيء ينعدم، وهو ما عرف – باطلًا في وقت من الأوقات – في الأوساط العلمية الحديثة: «بأن المادة لا تفنى ولا تُستحدث من عدم، لذلك فالكون أزلي ضرورة، بلا بداية لأن مادته غير مستحدثة»[٢]، وإنما الأشياء تتحول وتتقلب، لا تكاد تستقر على حال، ومن هذه المبادئ أيضًا إرجاع جميع الظواهر الطبعية إلى مصدر واحد، هو الحركة، ومنها القول بانفراد القانون الميكانيكي بالسيادة في العالم؛ فالأمور تجري بآلية جُسيمية، لا يضطلع بدور فيها إلا الذرات بشكلها وحجمها، وترتيبها ووضعها[٣].

(١) فلسفة المصادفة، محمود أمين العالم، (ص: ٥٢).
(٢) براهين وجود الله "في النفس والعقل والعلم"، د. سامي عامري، الناشر: تكوين للدراسات والأبحاث، السعودية، ط/١، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٨م، (ص٤١٥)، وهذا المبدأ هو ما يعرف بالقانون الأول للديناميكا الحرارية.
(٣) ينظر: تاريخ الفلسفة اليونانية، د. مرحبا، (ص: ١٢٦).

المطلب الثاني

المذهب والروحي

ويمثله أفلاطون قديمًا: ذهب إلى أن حركة العالم دائرية منتظمة، وأنه معلول لعلة عاقلة، هي النفس الإلهية أو الله، الذي هو عقل كامل رتب كل شيء عن قصد، فكل ما يحدث فهو يحدث بالضرورة عن علة، والعالم حادث محسوس متغير، ولذا فله صانع، ولما كان هذا الصانع خيرًا وعقلًا، فقد جاء الكون على مثاله كائنًا حيًا عاقلًا.

فالعالم عنده حادث، بدأ من طرف أول؛ لأنه محسوس، وكل ما هو محسوس، فهو خاضع للتغير والحدوث، وله صانع؛ ولما كان الصانع خيِّرًا فقد أراد أن تحدث الأشياء شبيهة به قدر الإمكان؛ ولذا صور "أفلاطون" العالم كائنًا حيًا، لا على مثال شيء حادث، بل على مثال الحي بالذات (طبقًا لنظرية المثل)، فخرج من ذلك إلى أن العالم واحد؛ لأن صانعه واحد، ونموذجه واحد، وهو كل محدود، ليس خارجه ما يؤثر فيه ويفسده؛ وذلك لأن صانعه عقل كامل، توخي الخير، ورتب كل شيء عن قصد؛ فهو روح عاقل، منظم جميل، خير عادل، كامل بسيط، لا تنوع فيه، ثابت لا يتغير، صادق لا يكذب، ولا يتشكل بأشكال مختلفة، وهو عالم بالعالم الذي أوجده، معتن به، كلياته وجزئياته، بالقدر الذي يتفق مع الكليات(١).

فهو يقر بوجود الله، وأنه صانع وموجد العالم بعد أن لم يكن، وأن هذا العالم حادث، ولكنه متصف بصفات الإله، من كونه حيًا عاقلًا، وهو عالم محسوس، معلوم لله، ويعتني به؛ لأن الجهل به نقص ينتج عنه محال.

ولكن القول بحدوث العالم عند "أفلاطون" غير مُسَلَّم، كما أنه مبهم غير واضح، ولعل هذا يتبين عندما نشرع في بيان كيفية صنع الله للعالم عنده؛ فقد ذهب إلى أن الله خلق نفس العالم أولًا، فهي سابقة على الجسم، صنعها الله من الجوهر الإلهي

(١) ينظر: تاريخ الفلسفة اليونانية، (ص: ١٠٤: ١٠٨)، الفلسفة اليونانية، د. أميرة مطر، (ص: ١٩٣، ١٩٤-١٩٩).

البسيط، فكانت غلافًا مستديرًا للعالم تحويه من كل جانب، وتتحرك حركة دائرية تحرك الباقي.

وعند هذا الحد نرى حدوث نفس العالم واضحًا جليًا، ولكن عندما يبين "أفلاطون" كيفية خلق جسم العالم؛ نجد قوله ينحو نحو القدم؛ فإنه لما شرع الله يركب جسم العالم، أخذ نارًا ليجعله مرئيًا، وترابًا ليجعله ملموسًا، ووضع الماء والهواء في الوسط.

ولكن هل كانت هذه العناصر هي البداية – كما ذهب لذلك الطبائعيون –؟ الحقيقة أن العالم عند "أفلاطون" كان في الأصل مادة رخوة، أي غير معينة، غامضة لا تدرك في ذاتها، بل بالاستدلال، كل ما نعقله عنها أنها موضوع التغير، أو المكان الذي تحصل فيه الصور المعينة.

هذه المادة الأولى كانت تتحرك حركات اتفاقية، فاتخذت ذراتها على حسب تشابهها في الشكل، وألفت العناصر الأربعة: النار والهواء والماء والتراب، وكلها تتكون من ذرات متفاوتة في العدد والحجم والشكل، وظلت هذه العناصر مضطربة هوجاء (كما يكون الشيء وهو خلو من الإله) حتى عين الصانع لكل منها مكانه، ورتب حركته[١].

وواضح من هذا أن تلكم المادة الرخوة «أزلية قديمة لا أول لها؛ فقد ذكر "أفلاطون" في محاورة "طيماوس" التي خصصها لتفسير التكوين الطبيعي للعالم، أن الصانع قد أحدث العالم محتذيًا المثل، أي أنه ركب الصورة المأخوذة عن المثل في المادة الخام، ومن هنا ظن البعض أن "أفلاطون" يقول بحدوث العالم، والواقع أن الصانع الذي يشكل موجودات العالم، محتذيًا المثل، إنما يضع الصور في المادة المضطربة القديمة، التي كانت موجودة قبل تشكيل الصانع لها»[٢].

(١) ينظر: تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، (ص: ١٠٨، ١٠٩)، تاريخ الفلسفة اليونانية، د. مرحبا، (ص ٢٤٠: ٢٤٢).
(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية، د. مرحبا، (ص ٢٤٠).

ومن هنا يمكن القول إن نفس العالم عند "أفلاطون" حادثة، صنعها الله وخلقها من الجوهر الإلهي، ولكن مادة العالم، تلك المادة الرخوة الغامضة، أزلية قديمة، ولعل هذا من نتاج تخليط "أفلاطون" ومحاولة التوفيق، أو التلفيق للفلسفات القديمة السابقة عليه؛ فخرج مذهبه بهذا الغموض، أو بالأحرى عدم التناسب؛ فكان الأولى أن يقول بقدم النفس وحدوث المادة، ولكن مذهبه في عالم المثل وقدمها، أداه إلى هذا التخبط.

وبصرف النظر عن الاختلاف في حدوث العالم أو قدمه عند "أفلاطون" فالنقطة المهمة عنده هي ذهابه إلى أنه أبدي خالد لا نهاية له؛ لأن الصانع أراد أن يكون العالم شبيهًا بنموذجه، ولما كان النموذج حيًا أبديًا، فقد اجتهد أن يجعله كذلك، ولكن ليس كأبدية النموذج؛ لأنها ممتنعة على الكائن الحادث، فعُنِي بصنع صورة متحركة للأبدية الثابتة(١).

وواضح من هذا أن مذهب "أفلاطون" خليط من مذاهب الفلاسفة قبله؛ فهو يقول مع الطبعيين الأوائل و"أنبادوقليس" (ت: ٤٣٠ ق. م) بالعناصر الأربعة كأصل للعالم، وبالمادة غير المعينة مع "أنكسمندريس"، وبالعقل الذي قال به "أنكساغوراس" (ت: ٤٢٧ ق. م) وبين عيب المذهب الآلي، وأقام على أساس متين، وبالمذهب الذري الآلي مع "ديمقريطس" وإن جعل هذه الآلية خاضعة لتدبير الصانع، وأخذ صفات العالم عن المدرسة الإيلية، وبالأخص "إكسانوفان" (٣٥٤ ق.م) فجعله واحدًا كرويًا متناهيًا حيًا عاقلًا، وأضاف الثبات والضرورة للعالم المعقول، ونبذ رأي الطبيعيين في الأجرام السماوية، وانحاز إلى العقيدة القديمة، كل ما هو سماوي فهو إلهي(٢).

(١) ينظر: تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، (ص: ١٠٨، ١٠٩).
(٢) قارن: المرجع السابق، (ص: ١١١، ١١٢).

المطلب الثالث

مذهبا أرسطو وابن رشد

أولًا: مذهب أرسطو

فأما "أرسطو" فيرى أن العالم متحرك بطبعه نحو علة غائية له، يُطلق عليها (المحرك الأول)، وهو ينفي كونه علة فاعلة، حتى لا يلزم له التحرك؛ فهو لا يخلق العالم، بل يحركه؛ كمحرِك لا يتحرك، وإنما يتحرك إليه بفعل شوقه إليه، حركة ضرورية، لا حرةٍ[١].

يقول أرسطو مستدلًا على ذلك: «وتتبين ضرورة القول بقدم الحركة من اعتبار المتحرك، والمحرك، والزمان، أما المتحرك فلا يخلو أن يكون إما قديمًا وإما حادثًا، فإن كان حادثًا، وكان الحدوث أو الكون يقتضي الحركة، كان كونه تغيُّرًا اقتضى حركة سابقة على البداية المزعومة للحركة، هذا خلف، وإن كان قديمًا فهو متحرك لا ساكن ؛ لأن السكون ما هو إلا عدم الحركة، فهو متأخر عنها، يقتضي إحداثه حركة أولى قبل الحركة، وهذا خلف، وأما من جهة المحرك، فإن عدم الحركة يعني أن المحرك والمتحرك بعيدان عن الواحد من الآخر، فلأجل أن تبدأ الحركة لا بد من حركة تقرب بينهما، وهذه الحركة تكون سابقة على بداية الحركة، وهذا خلف، وأما الزمان فهو مقياس الحركة، أو هو نوع من الحركة، فإن كان قديمًا كانت الحركة قديمة»[٢].

فأرسطو يعتقد بقدم العالم، وقدم الحركة؛ فالعلة الأولى عنده ثابتة وقديمة ومتحركة بالضرورة؛ ولذا فهي توجد معلولًا قديمًا متحركًا مثلها، وإلا لزم ألا تكون حركة أبدًا.

---

(١) ينظر: تاريخ الفلسفة اليونانية، وولتر ستيس، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، الناشر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط/١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، (ص: ١٨٤، ١٨٥)، قصة الفلسفة، ول ديورانت، ترجمة: أحمد الشيباني، الناشر: دار القارئ العربي، ط/٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، (ص: ١١٤).
(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، (ص: ١٩٤).

ويمكن الرد على ذلك: بأن القول بحدوث العالم لا يعني أن مرجحًا قد استجد، وإنما يتفق مع ثبات العلة الأولى؛ فهناك إرادة قديمة، تعلقت بخلق العالم في زمان معين، وهذا لا يحدث تغيرًا في العلة؛ لأن الفعل هو تعلق الإرادة بالزمان؛ فقدم العلة لا يستتبع قدم المعلول، إلا إذا كان المعلول يصدر عن علته صدورًا ضروريًا، وهذا لا يكون إلا إذا تكافأ مع العلة، وليس بين العالم المتغير وبين الله [الثابت] تكافؤ، وليس العالم ضروريًا لله، فليس من شأن الله أن يحرك أو يخلق بالضرورة(١).

ولقد سادت آراء "أرسطو" في العلية فترة طويلة من الزمن، وظلت هذه الفكرة هي المحور الذي تدور حوله كل فلسفة أولى، وأصبح البحث في الإلهيات بحث قائم على العلية(٢).

ثانيًا: مذهب ابن رشد

وأما "ابن رشد" فقد حاول أن يقف موقفًا وسطًا بين المتكلمين القائلين بالحدوث، والفلاسفة القائلين بالقدم؛ فذهب إلى أن الاختلاف بينهم لفظي لا حقيقي؛ فالموجودات ثلاثة أصناف: طرفان وواسطة، وهناك اتفاق بينهم في تسمية الطرفين واختلاف في الواسطة.

فأما الطرف الواحد، فهو موجود وجد من شيء، أي: عن سبب فاعل ومن مادة، والزمان متقدم على وجوده، وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكونها بالحس، مثل: تكون الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات، وغير ذلك، وهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع من القدماء والأشعريين على تسميتها محدثة.

وأما الطرف المقابل لهذا، فهو موجود لم يكن من شيء، ولا عن شيء ولا تقدمه زمان، وهذا أيضاً اتفق الجميع من الفرقتين على تسميته "قديمًا" وهذا الموجود

(١) ينظر: المرجع السابق، (ص: ١٩٣).
(٢) ينظر: طريق الفيلسوف، جان فال، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، الناشر: مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٧م، (ص: ١٨٤).

مدرك بالبرهان، وهو الله تبارك وتعالى، هو فاعل الكل وموجده، والحافظ له.

وأما الصنف من الموجود الذي بين هذين الطرفين، فهو موجود لم يكن من شيء، ولا تقدمه زمان، ولكنه موجود عن فاعل، وهذا هو العالم بأسره.

والكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم، وإنما يختلفون في الزمان الماضي، والوجود الماضي: فالمتكلمون يرون أنه متناه، وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته، وأرسطو وفرقته يرون أنه غير متناه، كالحال في المستقبل؛ فهذا الوجود الآخر الأمر فيه بين أنه قد أخذ شبهًا من الوجود الكائن الحقيقي، ومن الوجود القديم، فمن غلب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدث سماه قديمًا، ومن غلب عليه ما فيه من شبه المحدث، سماه محدثًا، وهو في الحقيقة ليس محدثًا حقيقيًا، ولا قديمًا حقيقيًا. فإن المحدث الحقيقي فاسد ضرورة، والقديم الحقيقي ليس له علة[1].

فهو يخطئ المتكلمين في القول بالحدوث المطلق، والفلاسفة في القول بالقدم المطلق، وأن لفظ القدم والحدوث بدعة في الشرع؛ لأنه لم يصرح به[2].

ويتهمهم بأنهم ليسوا على ظاهر الشرع في القول بالخلق من عدم؛ فالخلق عنده يكون من مادة سابقة، والموجود لا يعدم، بل يصير لكون آخر.

يقول ابن رشد: «إن هذه الآراء في العالم ليست على ظاهر الشرع؛ فإن ظاهر الشرع إذا تصفح ظهر من الآيات الواردة في الأنباء عن إيجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة، وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين [طرفا البدء والانتهاء]، أعني غير منقطع؛ وذلك أن قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) ينظر: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد (ت: ٥٩٥هـ)، ت/ د. محمد عمارة، ط/ دار المعارف، ط/٢، (ص: ٤٠: ٤٢).

(٢) ينظر: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، ت/ د. محمد عابد الجابري، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – لبنان، ط/١، ١٩٩٨م، (ص: ١٧١، ١٧٢).

﴿وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، يقتضي بظاهره أن وجودًا قبل هذا الوجود، وهو العرش والماء، وزماناً قبل هذا الزمان، أعنى المقترن بصورة هذا الوجود، الذي هو عدد حركة الفلك. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، يقتضي أيضاً بظاهره أن وجودًا ثانيًا، بعد هذا الوجود، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، يقتضي بظاهره أن السموات خلقت من شيء.

فالمتكلمون – أيضاً – ليسوا في قولهم في العالم، على ظاهر الشرع، بل متأولون؛ فإنه ليس في الشرع أن الله كان موجودًا مع العدم المحض، ولا يوجد هذا فيه نصًا أبدًا»[(١)].

فليس عنده إيجاد من عدم؛ لأن العدم ليس محلًا للخلق، فليس فيه إمكان أصلًا، إلا لو أمكن أن يتحول العدم وجودًا، وفعل الفاعل لا يتعلق بالعدم؛ لأن العدم ليس بفعل[(٢)].

فهو يرى أن الوجود لم يسبق بعدم، وإنما كانت بدايته في زمان، فهو قديم بالزمان، حادث بالذات.

ولذا يفرق ابن رشد بين نوعين من القدم: القدم الذاتي، وهو ما لم يسبق بوجود ولا عدم، والقدم الزماني، وهو ما لم يتقدمه زمان[(٣)]، فيرى أن العالم بهذا المفهوم

(١) فصل المقال، (ص: ٤٢، ٤٣)، ولا نسلم لابن رشد هذا الطرح؛ فقد سبق بيان إمكان الخلق من عدم، وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: «كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ غَيْرُهُ»، ينظر: (ص: ؟؟)، من البحث.

(٢) ينظر: تهافت التهافت، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد (ت: ٥٩٥هـ)، ت: د. سليمان دنيا، ط/ دار المعارف، ط/٣، (١/١٥٥)، قارن: (١/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٣) القدم الذاتي: هو عدم افتتاح الوجود، أي: عدم الأولية للوجود. ينظر: حاشية البيجوري على جوهرة التوحيد، المسمى: تحفة المريد على جوهرة التوحيد، ت/ د. علي جمعة، ط/ دار السلام، ط/٦، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، (ص: ١٠٧)، وقيل: القدم الذاتي هو كون الشيء غير محتاج إلى الغير، والقدم الزماني هو كون الشيء غير مسبوق بالعدم، والقديم بالذات يقابله المحدث بالذات، وهو الذي يكون وجوده من غيره، كما أن القديم بالزمان يقابله المحدث بالزمان، وهو الذي سبق عدمه وجوده سبقًا زمانيًا. ينظر: التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، ت/ إبراهيم الأبياري، ط/ دار الكتاب العربي، ط/١، - بيروت – ١٤٠٥هـ (ص: ٢٢٢، ٢٢٣)، المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، د. إبراهيم مدكور وآخرون، الناشر: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، (ص: ٧٠).

الأخير لم يكن من شيء، ولا تقدمه زمان، ولكنه موجود عن فاعل قديم، بلا زمان، فليس هناك إيجاد من عدم، ولا عدم بعد الوجود(١).

«والباري ﷻ ليس من شأنه أن يكون في زمان، والعالم شأنه أن يكون في زمان، فليس يصدق عند مقايسة [قياس] القديم إلى العالم أنه: إما أن يكون متقدمًا عليه بالزمان أو بالسببية؛ لأن القديم ليس من شأنه أن يكون في زمان، والعالم من شأنه أن يكون في زمان»(٢).

ففرق كبير بين وجود الباري ﷻ وبين وجود العالم؛ فوجود الباري من ذاته، ووجود العالم من غيره، ومن هنا فهو سابق في الوجود على العالم سبقًا ذاتيًا، والعالم قديم في الزمان، بمعنى أنه لا بداية له زمانيًا؛ لأن الزمان هو مقدار حركات الأفلاك، وقبل خلقها لا زمان، فالاختلاف في التسمية والاصطلاح، وليس على الحقيقة.

فالله – في نظر ابن رشد – هو خالق العالم وموجده، وهو السبب الأول لوجوده، وإن كان ينفي الخلق من عدم، ويثبت الخلق من مادة سابقة، ليس لها بداية في الزمان، فهي قديمة زمانيًا، حادثة ذاتيًا؛ لأنها مسبوقة بوجود الله القديم بالذات، ويستدل على ذلك بدليلي العناية والاختراع الشهيرين عنده(٣).

---

(١) ينظر: تاريخ الفلسفة العربية، د. جميل صليبا، الناشر: الشركة العالمية للكتاب، ١٩٨٩م، (ص: ٤٧٧).
(٢) تهافت التهافت، (١/١٤٠، ١٤١).
(٣) ١- دليل العناية: وينبني على أصلين: أحدهما: أن جميع الموجودات موافقة لوجود الإنسان، وذلك باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر، والأزمنة الأربعة، وكذلك الأرض التي يسكنها، وكثير من الحيوان والنبات والجماد، وبالجملة الأرض والماء والنار والهواء، كما تظهر هذه العناية واضحة في أعضاء البدن، أي كونها موافقة لحياته ووجوده.
والثاني: أن هذه الموافقة ضرورية من قبل فاعل، قاصد، مريد، فلا يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق، وأورد ابن رشد الكثير من الآيات للتنبيه على هذه الدلالة، ومنها: قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ ﴾ [النبأ: ٦ – ١٦]، وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢ ﴾ [عبس: ٢٤ – ٣٢].

وبذا يتبين أن ابن رشد ينسب خلق العالم إلى الله وحده، فهو السبب الأول والأخير في وجوده، بل والعناية المستمرة به؛ بناء على نظريته في القول بالخلق المستمر، وحفظ العالم الدائم(١)، فالعالم عنده لا يمكن أن ينشأ بلا سبب، بل ولا يستمر في الوجود بلا سبب، يمسكه عن العدم.

وينبغي التنبيه هنا إلى أن ابن رشد وإن تأثر بأرسطو في قدم العالم، إلا أنه قد حول مسار الفعل الإلهي من مجرد الحركة – بفعل الشوق – للعالم، إلى كونه فاعلًا وسببًا أول له، وذلك أن قدم العالم بمادته الأولى الأزلية، وكون الموجودات ذات علاقة بعضها ببعض، بفعل طبيعتها وقواها الذاتية، يوهمنا بأن الفعل الإلهي يقتصر على التحريك الأزلي، الذي يخرج الكل من حال القوة إلى حال الفعل، ولكن ابن رشد ربط المفعولات بالفاعل، في ارتقاء إليه بالذات، مع كون بعضها يؤثر في بعض بالعرض، مما أعطي مسألة السببية الإلهية – عنده – بعدًا جديدًا ، ينقل العلة الأولى من كونها محركة إلى كونها فاعلة(٢).

٢- دليل الاختراع: ويدخل فيه جميع الموجودات، وينبني على أصلين موجودين في فطر الناس: أحدهما: أن هذه الموجودات مخترعة؛ فهناك أجسام جمادية، لا تفتأ أن تحدث فيها الحياة؛ فيعلم - على وجه القطع - أن لها موجدًا ومنعمًا، وهو الله ﷻ فمن قبل حركات السماوات نعلم أنها مأمورة بالعناية بما ههنا، ومسخرة لنا، والمسخر المأمور مخترع من قبل غيره ضرورة، والثاني: أن كل مخترَع له مخترِع، فيصح من هذين الأصلين: أن للوجود فاعلًا مخترعًا له، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ الآيات، [الطارق: ٥– ٧]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾ الآيات، [الغاشية: ١٧ – ٢٠]، ومن الآيات ما يجمع الدلالتين معا، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ الآية، [البقرة: ٢١ – ٢٢]. ينظر: الكشف عن مناهج الأدلة، ابن رشد، (ص: ١٥٠: ١٥٢).

(١) العالم في نظر ابن رشد يحتاج إلى محرك فاعل دائم؛ فالخلق الإلهي في حالة اتصال، من نقل ما بالقوة إلى الفعل أو بالعكس، إنه إيجاد مستمر؛ إذ تنعدم صورة وتوجد أخرى، يقول ابن رشد: «إن نسبة أجزاء الموجودات من العالم كله، نسبة أجزاء الحيوان الواحد... أعني أن فيها قوة واحدة روحانية، بها ارتبطت جميع القوى الروحانية والجسمانية، وهي سارية في الكل سريانًا واحدًا، ولولا ذلك لما كان ههنا نظام ولا ترتيب، وعلى هذا يصح القول: إن الله خالق كل شيء وممسكه وحافظه، كما قال ﷻ: ﭐﱡ ﱠ [فاطر: ٤١]، ففعل الواحد الأزلي -والذي أفاد جميع الموجودات وجودها - فعل دائم أزلي، لا في وقت دون وقت؛ فالفاعل الأول يتعلق به مفعوله على الدوام، والمفعول تشوبه القوة على الدوام. ينظر: تهافت التهافت، (٣٧٨/١، ٥٢٠/٢).

(٢) ينظر: مفهوم السببية بين المتكلمين والفلاسفة، د. جيرار جهامي، ط/دار المشرق، ط/٢، ١٩٩٢م، (ص٥٦).

المطلب الرابع

القائلون بالفيض

وهم فلاسفة الإسلام، ويمثلهم "الفارابي" و "ابن سينا".

سبقهما فيلسوف الإسلام "الكندي" (ت: ٢٥٩هـ - ٨٧٣م)، ولكنه صرح بحدوث العالم، وإيجاده من عدم؛ فهو يرى أن الله ﷻ هو الوجود الحق، الذي لم ولن يعدم أبدًا، ولا يزال موجودا أبدًا، هو العلة الأولى التي لا علة لها، الفاعلة التي لا فاعل لها، أوجد الكل من العدم، مبدِع وهم مبدَعون، دائم وهم غير دائمين، هو الذي صير العالم بعضه لبعض أسبابًا وعللًا، العظيم القدرة، المتقِن التدبير، الواسع الحكمة، الفائض بالجود على جميع المخلوقات والكائنات(١).

أما الفارابي وابن سينا(٢)، فقد ذهبا إلى القول بقدم العالم، يقول الفارابي: «الماهية المعلولة لها عن ذاتها أنها ليست، ولها عن غيرها أنها توجد، والأمر الذي عن الذات قبل الأمر الذي ليس عن الذات، وللماهية المعلولة ألا توجد بالقياس إليها قبل أن توجد، فهي محدثة لا بزمان تقدم»(٣).

ويقول ابن سينا: «يقال قديم للشيء، إما بحسب الذات، وإما بحسب الزمان، فالقديم بحسب الذات هو الذي ليس لذاته مبدأ هي به موجودة، والقديم بحسب الزمان، هو الذي لا أول لزمانه»(٤)، فالعالم عنده قديم قدمًا زمانيًا لا ذاتيًا؛ ذلك أنهم نظروا إليه من حيث إنه معلول لله ﷻ ولا يجوز تأخر المعلول عن علته، كما أنه

---

(١) ينظر: كتاب الكندي في الإبانة عن العلة الفاعلة القريبة للكون والفساد، أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي، ضمن رسائل الكندي الفلسفية، ت/ د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط/ دار الفكر العربي، ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م. (٢٠٧/١، ٢١٥، ٥١٦)، كتاب الكندي إلى المعتصم في الفلسفة الأولى، (١٦٠/١، ١٦١)، ضمن رسائل الكندي الفلسفية.

(٢) يتفق كلاهما في هذه القضايا، ويأخذ اللاحق منهما عن السابق؛ فجل ما ذكره ابن سينا هو عين ما قاله الفارابي.

(٣) فصوص الحكم، أبو نصر الفارابي، ضمن كتاب الثمرة المرضية في المسائل الفارابية، ت/ د. عماد نبيل، الناشر: دار الفارابي – بيروت - لبنان، ط/١، ٢٠١٢م، (ص: ٢٦٤).

(٤) النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهيات، الشيخ الرئيس الحسين أبو على ابن سينا، نقحه وقدم له د/ ماجد فخري، ط/ دار الآفاق الجديدة – بيروت – (ص: ٢٥٤).

فعل الله، وفعل الله قديم، واستدلوا على ذلك بأنه: لو كان العالم حادثًا لأدى إلى حدوث تغير في إرادة الله القديمة، وهو محال، كما أنه يؤدي إلى أن يكون الله مستكملًا لفاعليته بخلق العالم، وهذا يتنافى – في نظرهم – مع كونه واجب الوجود بذاته [١].

وبسبب تأثر الفارابي وابن سينا بأرسطو والفلسفة الإغريقية، مالا عن سلفهما وقررا القول بقدم العالم، وصدوره عن الله بطريق الفيض، على الرغم من اعترافهما بأنه ﷻ هو السبب الأول[٢]، والعلة الأولى[٣]، لوجود العالم.

لقد نفى كلٌ من الفارابي وابن سينا أن يكون صدور العالم عن الله، عن طريق القصد والاختيار؛ لأنه يؤدي في نظرهم إلى تكثر في ذات الله، ولكنهم رفضوا – في الوقت ذاته – أن يكون الصدور على سبيل الطبع؛ وذلك لأن الله يعلم ما يصدر عنه، ويعلم أن كماله في صدور الكائنات عن ذاته، فهو عالم بالصدور وراض عنه، يقول ابن سينا: «وليس كون الكل عنه على سبيل الطبع، بأن يكون وجوب الكل عنه لا بمعرفة منه ولا رضا منه... فإنه راض بما يكون عنه، فالأول راض بفيضان الكل عنه...»[٤].

لجأ الفارابي وابن سينا إلى القول بالفيض[٥]؛ ليفسرا لنا كيفية صدور العالم عن

---

(١) ينظر: المرج السابق، (ص٢٩٢- ٢٩٤، ٣٠٤، ٣٠٧)، الشفاء، ابن سينا، قسم الإلهيات، ت/ الأب جورج قنواتي، سعيد زايد، راجعه/ د. إبراهيم مدكور، ط/ وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (٣٧٦/١ -٣٨٠، ٣٩٦)، الإشارات والتنبيهات، ابن سينا، ت/ د. سليمان دنيا، ط/ دار المعارف، ط/٢، (٧١/٣، وما بعد،٩٠، وما بعد، ١٠٨، وما بعد،١١٨، وما بعد).

(٢) هذا تعبير الفارابي، الذي ذكره في كثير من كتبه، منها: آراء أهل المدينة الفاضلة، قدم له وعلق عليه وشرحه د. على بو ملحم، ط/ دار ومكتبة الهلال، ط/١، ١٩٩٥م، (ص:٢٥- ٢٧)، السياسة المدنية، ت/ د. علي بو ملحم، ط/ دار ومكتبة الهلال، (ص: ٣٩ وما بعد)، إحصاء العلوم، ت/ د. علي بو ملحم، ط/دار ومكتبة الهلال، ط/١، ١٩٩٦م، (ص:٧٦، ٧٧).

(٣) ينظر: النجاة، (ص: ٢٦٤)، الشفاء قسم الإلهيات، (٣٤٢/١).

(٤) النجاة، (ص: ٣١٠، ٣١١)، قارن: الشفاء، لابن سينا أيضا (٤٠٢/١، ٤٠٣).

(٥) تتلخص نظريتهما في رؤيتهما أن الله عقل، له معقول لامحالة، العقل الأولي، والأول هو الذي عنه وجد، ومتى وجد للأول الوجود الذي هو له، لزم ضرورة أن يوجد عنه سائر الموجودات... ووجود ما يوجد عنه إنما هو على جهة فيض وجوده لوجود شئ آخر... ثم يفيض من الأول وجود الثاني، فهذا الثاني هو أيضا جوهر غير متجسم أصلًا، ولا هو مادة، فهو يعقل ذاته ويعقل الأول، وليس ما يعقل من ذاته هو شيء آخر =

الله ﷻ وهي نظرية مأخوذة عن الأفلاطونية المحدثة[١].

ولا شك أن هذه النظرية تؤدي إلى ضرب من وحدة الوجود، وتتنافى مع القول بالخلق من عدم، فالله ﷻ في ضوء هذه النظرية لا يمكن أن يكون كائناً مريدًا، بالمعنى الحقيقي لكلمة الإرادة، من جهة الاختيار والتمييز، ومن جهة تراخي المراد عن إرادته، ثم إن العالم بهذا التصور لم يحدث بناء عن القدرة الإلهية، وإنما حدث حدوثا آليًا تلقائيًا؛ فالله هنا أشبه بينبوع ماء تفجرت منه المياه أو انسابت، دون أن يملك منعه أو الاحتفاظ به[٢].

وهذه النظرية رفضها كل من ابن رشد – مع قوله بالقدم الزماني للعالم – والإمام الغزالي والمتكلمون؛ لقولهم بالحدوث من عدم، فأجمعوا على بطلان قواعد

= غير ذاته، فما يعقل من الأول يلزم عنه وجود ثالث، وبما هو متجوهر بذاته التي تخصه، يلزم عنه وجود السماء الأولى، وهذا هو العقل الثاني، ومنه يحصل= =عقل ثالث وسماء ثانية، وهكذا.. يستمر حصول عقل وفلك من عقل، حتى نصل إلى العقل المحرك لفلك القمر، ثم العقل الخاص بعالم ما تحت فلك القمر، وهو العالم الأرضي، الذي يتكون من الإسطقسات (العناصر) الأربعة، التي عنها توجد الأجسام الطبيعية، من معادن ونبات وحيوان، وآخر العقول التي فاضت عن الأول هو العقل الفعال، أو ما ينبغي أن يقال: إنه الروح الأمين وروح القدس - على حد قول الفارابي - وهو الذي يعتني بالحيوان الناطق، والتماس تبليغه أقصى مراتب الكمال وهو المدبر للعالم الأرضي، الذي يتصل به الإنسان وبهذا الاتصال يفسر الفارابي أمورًا كثيرة من صميم نظرية المعرفة، ومن الدين كنظرية الوحي. ينظر: آراء أهل المدينة الفاضلة، للفارابي، (ص: ٤٥، ٥٢). تاريخ الفلسفة العربية، د. جميل صليبا، (ص:٢٣٢). ولا يختلف ابن سينا عن الفارابي في القول بالصدور وكيفيته، إلا في بعض التفاصيل، فالفارابي يذهب إلى نوعين من التعقل، عنهما يصدر عقل آخر وكرة فلك، أما ابن سينا فعملية الفيض عنده ثلاثية لا ثنائية، فعن كل عقل تصدر ثلاثة أشياء: عقل، ونفس، وجرم، وهذا الصدور أزلي، لا يجوز تصوره على غير ذلك، ومحله الهيولى [المادة]، والهيولى مجرد إمكان أزلي لجميع الموجودات، والعقل لا يؤثر في الهيولى؛ فهي الحد الذي يقف عنده فعل العقل، وهي مبدأ التكثر في الجزئيات كلها. ينظر: الفلسفة الإسلامية، د. أحمد فؤاد الأهواني، ط/ دار القلم، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٢م، (ص: ١٣٨)، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ت ج، دي بور، ترجمة وتعليق: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط/ مكتبة النهضة المصرية، ط/٥، (ص: ٢٥٥، ٢٥٦)، ولتفصيل قول ابن سينا ينظر: النجاة ص٣١٤، وما بعد، الشفاء قسم الإلهيات، (٤٠٥/١، وما بعد)، الإشارات والتنبيهات، (٢٢١/٣، وما بعد)، رسالة في معرفة النفس الناطقة، منشورة مع أحوال النفس، ت/ د. أحمد فؤاد الأهواني، ط/ القاهرة، ١٩٥٢م، (ص: ١٨٩).

(١) هي نظرية تحاول تفسير نشأة الكون وخلق العالم، وتعني بإيجاز: أن الواحد المطلق (الله) بسيط، وكامل، غير مفتقر إلى شيء سوى ذاته؛ ولذلك فهو فياض، فاض عنه الوجود. ينظر: تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، (ص: ٣٣٦، ٣٣٧)، الفلسفة اليونانية، تاريخها ومشكلاتها د. أميرة حلمي مطر، (ص: ٤٥٠- ٤٥٦).

(٢) ينظر: الفلسفة الإسلامية، للأهواني، (ص: ١٣٦)، الفلسفة الإسلامية في المشرق، د. فيصل بدير عون، الناشر: مكتبة الحرية الحديثة، ١٩٨٢م، (ص:٢٥٥).

بنائها، وهي فكرة أن الواحد البسيط لا يصدر عنه إلا واحد[١].

فأما ابن رشد فقال: «وأصل فساد هذا الوضع قولهم: إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، ثم وضعوا في ذلك الواحد الصادر كثرة، فلزمهم أن تكون تلك الكثرة عن غير علة، ووضعهم تلك الكثرة محدودة يحتاج إلى إدخال مبدأ ثالث ورابع لوجود الموجودات، شيء وضعي لا يضطر إليه برهان»[٢].

ويتعجب ابن رشد من أنه: كيف خفي هذا على أبي نصر (الفارابي) وابن سينا؟ لأنهم أول من قال هذه الخرافات، فقلدهما الناس، ونسبوا هذا القول إلى الفلاسفة، فما أكذب هذه القضية: إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد[٣].

وأما الغزالي فقال في نقدها: «فيلزم من هذا أن لا يكون في العالم شيء واحد مركب من أفراد، بل تكون الموجودات كلها آحادًا، وكل واحد معلول لواحد آخر فوقه، وعلة لآخر تحته، إلى أن ينتهي إلى معلول لا معلول له، كما انتهى في جهة التصاعد إلى علة لا علة له، وليس كذلك؛ فإن الجسم عندهم مركب من صورة وهيولى، وقد صار باجتماعهما شيئًا واحدًا، والإنسان مركب من جسم ونفس، ليس وجود أحدهما من الآخر، بل وجودهما جميعاً بعلة أخرى، والفلك عندهم كذلك؛ فإنه جرم ذو نفس، لم تحدث النفس بالجرم، ولا الجرم بالنفس، بل كلاهما صدرا من علة سواهما، حيث يقع التقاء الواحد والمركب، يُبطل القول بأن الواحد لا يصدر منه إلا واحد؛ فكيف وجدت هذه المركبات؟ أمن علة واحدة؟ فيبطل قولهم: لا يصدر من الواحد إلا واحد، أو من علة مركبة؟ فيتوجه السؤال في تركيب العلة إلى أن يلتقي بالضرورة مركب ببسيط؛ فإن المبدأ بسيط، وفي الأواخر تركيب، ولا

(١) فصلها ابن سينا في كتبه: الإشارات والتنبيهات، (٢١٦/٣، ٢١٧)، النجاة، (ص:٣١٣، (الشفاء، (٤٠٤/١، ٤٠٥).

(٢) تهافت التهافت، (٤٠٦/١، ٤٠٧).

(٣) ينظر: المرجع السابق، (٣٩٩/١، ٤٠١)، وقد نقد ابن رشد القول بالفيض في غير هذه المواضع، وبين صحيح مذهب أرسطو فيه، في كتابه السابق: (٢٩٦/١، ٢٩٧، ٣٠٠، وما بعد، ٣٨٩).

يتصور ذلك إلا بالتقاء؛ وحيث يقع التقاء، يبطل قولهم: إن الواحد لا يصدر منه إلا واحد»[١].

فالخلق الواحد يكون منه أكثر من واحد مركب، كما هو الشأن في الإنسان وفي الأفلاك، فكيف يدعى أن الواحد لا يصدر منه إلا واحد؟

وأما المتكلمون فقد نقدوا أيضًا، وأنكروا كون العالم قديمًا يستند إلى الفاعل بلا اختيار ولا قصد منه، فقالوا: «القديم لا يستند إلى القادر المختار، أي: لا يكون أثرًا صادرًا منه اتفاقًا من المتكلمين وغيرهم، والحكماء إنما أسندوه، أي: القديم الذي هو العالم على رأيهم، إلى الفاعل الذي هو الله تعالى؛ لاعتقادهم أنه تعالى موجب بالذات، لا فاعل بالاختيار، ولو اعتقدوا كونه مختارًا لم يذهبوا إلى قدم العالم المستند إليه»[٢].

فالمسألة في الأساس هي الفعل بالقصد والاختيار، أو الضرورة والطبع؛ فمن قال بالأول يقول – قطعًا بحدوث العالم، ومن قال بالثاني ينزع إلى القول بالقدم، فهذا أصل المسألة.

فالقول بحدوث العالم، وأن الله ﷻ أحدثه من عدم هو قول كل أصحاب الملل والأديان التي لها حظ من الرسالات الإلهية، والكتب السماوية؛ فقد جاء فيها أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، والقديم الأزلي لا يكون في أيام.

كما عُلم بالاضطرار أن ما أخبرت به الرسل، من أن الله خلق كل شيء، وأنه خلق كذا، إنما أرادوا بذلك أنه خلق المخلوق وأحدثه بعد أن لم يكن، كما قال﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: ٩]، والعقول الصريحة توافق ذلك، وتعلم أن

(١) تهافت الفلاسفة، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، (ت: ٥٠٥هـ)، ت/ د. سليمان دنيا، ط/ دار المعارف، القاهرة، ط/٦، – مصر - (ص: ١٤٤).
(٢) شرح المواقف، عضد الدين الإيجي، (٣/ ١٨١، ١٨٢).

المفعول المخلوق المصنوع، لا يكون مقارناً للفاعل في الزمان، ولا يكون إلا بعده، وأن الفعل لا يكون إلا بإحداث المفعول.

وأيضًا فكونه فاعلًا لمفعول معين، مقارن له أزلًا وأبدًا باطل في صريح العقل، فالفلاسفة وسائر العقلاء موافقون على أن الممكن، الذى لا يكون إلا ممكناً يقبل الوجود والعدم، وأن القديم الأزلي لا يكون إلا ضروريًا واجبًا يمتنع عدمه، وهذا مما اتفق عليه أرسطو وأتباعه حتى ابن سينا، وذكره في كتبه المشهورة، كالشفا وغيره، ثم تناقض: فزعم أن الفلك ممكن مع كونه قديمًا أزليًا، لم يزل، ولا يزال، وزعم أن الواجب بغيره القديم الأزلي الذى يمتنع عدمه، يكون ممكناً يقبل الوجود والعدم(١).

ولعلنا نلاحظ هنا أن فلاسفة الإسلام ومعهم "أرسطو" لا ينكرون السببية في الخلق؛ فالله موجد للعالم، وهو سببه وعلته – وإن كان "أرسطو" يرى بأنه علة بالطبع، لا يدري شيئًا عن معلوله – ولكن الخلاف في كون المعلول لهذه العلة قديمًا أو حادثًا – على ما فصلنا سلفًا – فلاسفة الإسلام يقولون بقدمه؛ لأن المعلول لا يتأخر عن علته بالزمان، وإن تأخر عنه بالرتبة.

(١) ينظر: كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير، أحمد عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، الناشر: مكتبة ابن تيمية، ت/ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، ط/٢، (١٢/ ٤٦: ٤٨).

المبحث الثاني

القضية في العصر الحديث

تميز القائلون بالقدم في العصر الحديث بمحاولة إضفاء صيغة وصبغة علمية على إثبات هذه القضية، وإن كانت تلك المحاولة متهافتة في مجملها؛ فلا سند علمي لها في تفصيلاتها، وهم في الجملة فريقان: فريق يقول بالصدفة عندما لا يجد مبررًا لإنكاره حدوث العالم ووجود خالق له، وفريق يقول بالتطور مستندًا على بعض الأدلة التي يراها علمية ونراها مجرد شواهد غير مكتملة الأركان، ونتناول هؤلاء وأولئك على النحو التالي:

المطلب الأول

القائلون بالصدفة

وهم الذين يرون خروج الموجود من المعدوم بلا سبب، وأن وجود العالم كان من مادة قديمة، صدرت اتفاقًا ومصادفة.

والصدفة في بعض تعريفاتها هي: «ما يخرج على النظام والقانون المعروف، ولا يبدو له سبب، ولا غاية واضحة، وهو أشبه ما يكون بالاتفاق، ومعناه: ما يحدث عرضًا، ولا تعرف له أسباب واضحة»[١].

وقيل: هي «الأمر الذي لا يمكن تفسيره بالعلل الفاعلة، ولا بالعلل الغائية»[٢].

ذهب القائلون بالصدفة إلى أن «الكون نشأة تلقائيًا نتيجة لأحداث عشوائية، دون الحاجة إلى صانع، وظهرت الحياة ذاتيًا من المادة، عن طريق قوانين الطبيعة... ليس هناك حاجة إلى القول بوجود إله»[٣].

---

(١) المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية (ص: ١٨٥).

(٢) المعجم الفلسفي، د. جميل صليبيا، ط/ دار الكتاب اللبناني- مكتبة المدرسة – بيروت - لبنان، ١٩٨٢م، (٣٨٣/٢).

(٣) خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، الناشر: نيو بوك للنشر والتوزيع – القاهرة – ط/٩، ٢٠١٨م، (ص: ٣٤، ٣٥).

وهذا المذهب قديم، اصطبغ بصورة محدثة، حاولت إظهاره في ثوب علمي مهلل، ولكنهم ارتضوا به لستر سوءة الإلحاد، وما هو بساتر.

وهم الدهرية قديمًا، الذين قالوا: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٤]، أي: إلا مرور الزمان، وهو في الأصل مدة بقاء العالم {وما لهم بذلك من علم} يعني: نسبة الحوادث إلى حركات الأفلاك، وما يتعلق بها على الاستقلال، أو إنكار البعث، أو كليهما {إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}؛ إذ لا دليل لهم عليه؛ وإنما قالوه بناء على التقليد والإنكار لما لم يحسوا به(١).

فهو قول ينم عن جهل مركب؛ فلا هم يعلمون بأصل الوجود، ولاهم تحققوا من قولهم بحجة أو دليل، بل مجرد تخرص وتخمين، ظنًا بلا برهان.

وقد نشأ هذا القول بنشأة الفلسفة الإغريقية، فذهب الطبعيون الأوائل – الذين سبق ذكرهم – إلى أن وجود الكائنات العلوية والسفلية، إنما هو من الاتفاق وأحكام الصدفة، وهذا من الترجيح بلا مرجح، والذي يحيله بداهة العقل، وعلى رأس هؤلاء "ديمقريطس" الذي قال إن أصل العالم ذرات تنشأ وتتحرك على نحو آلي اتفاقي.

ومنهم من قال: بأنه لا ابتداء لسلسة النباتات والحيوانات؛ ففي كل بذرة نبات مندمج فيها، وفي كل نبات بذرة كامنة... وهكذا، إلى غير نهاية، وفي كل جرثومة من جراثيم الحيوانات حيوانًا تام التركيب، وفي كل حيوان كامن في الجرثومة جرثومة أخرى، إلى ما لا نهاية.

ومنهم من قال: إن أنواع النباتات والحيوانات تقلبت في أطوار، وتبدلت عليها صور مختلفة، بمرور وكرور الدهور، حتى وصلت إلى هيئاتها وصورها المشهودة لنا، وأول النازعين إلى هذا الرأي هو أبيقور (ت: ٢٧٠ ق. م)، ومن مزاعمه: أن

(١) ينظر: تفسير البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، ت/ محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط/ دار إحياء التراث العربي، ط/١ – بيروت - ١٤١٨هـ، (٥/ ١٧٢، ١٧٣).

الإنسان في بعض أطواره كان مثل الخنزير، مستور البشرة بالشعر الكثيف، ثم يتنقل من طور إلى طور، حتى وصل إلى ما عليه الآن من الصورة الحسنة، والخلق القويم(١).

وهذا هو أصل القول بنظرية التطور في العصر الحديث –على ما سنذكر–.

ولأن الإلحاد وإنكار وجود الله – وهو ديدن كثير من البشر من بدايتهم حتى الآن – يسيران في خطٍ متوازٍ مع القول بالصدفة؛ امتد القول بالصدفة عبر سائر العصور، حتى العصر الحديث، كسند واهٍ للإلحاد؛ هروبًا من إسناد خلق العالم لإله عالم، قادر، مختار، مريد؛ فقد عجزوا عن فهم نشأة العالم من عدم، أو رفضوا هذا الطرح؛ لأنه يوجب القول بوجود خالق، وهم ينكرون وجوده وكل ما يؤدي إلى الإيمان به، فاضطروا لقبول أي فكرة تعارض هذا الإيمان، مهما كانت سخيفة ومرفوضة في العقل والعلم معًا.

وقد أيد هذا القول – للأسف – بعض رجال الفكر والفلسفة، في العصور الحديثة والمعاصرة، فيقول "برتراند رسل" – (Bertrand Russell) (١٨ مايو ١٨٧٢ – ٢ فبراير ١٩٧٠م): «إن الكون الذي نشاهده الآن إنما وجد بمحض الصدفة»(٢).

ويقول: «ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير، إن نشأته وحياته وآماله، ومخاوفه، وعواطفه، وعقائده، ليست إلا نتيجة لاجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة»(٣).

ويقول "دوكنز" (أحد منظري الإلحاد في القرن العشرين – ولد: ١٩٤١م): «ندين بوجودنا إلى ضربة هائلة من الحظ»(١).

---

(١) ينظر: رسالة الرد على الدهريين، جمال الدين الأفغاني، ترجمة: الشيخ محمد عبده، ت/ د. أحمد ماجد، ط/ دار المعارف الحكمية، - بيروت – لبنان - الناشر: مكتبة مؤمن قريش، ط/١، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ٧٤: ٧٩).

(٢) فلسفتي كيف تطورت، برتراند رسل، ترجمة: عبد الرشيد صادق، مراجعة: د. زكي نجيب محمود، ط/ مكتبة الأنجلو، ١٩٦٠م، (ص: ٢)

(٣) الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين، من بحث بعنوان: المادية وحدها لا تكفي، كتبه: إبرفينج وليام نوبلوتشي، (ص: ٥٧).

فوجودنا كله حسب "دوكنز" يعود إلى الصدفة، إلى الحظ، إلى ورقة يانصيب رابحة، ولكن منظم اليانصيب هو: لا أحد(٢).

وقد قيل: «إن تفسير الكون بوساطة قانون الصدفة ليس بكلام فارغ، بل هو كما يعتقد السير "جيمس جينز" ينطبق على قوانين الصدفة الرياضية المحضة، ويقول أحد العلماء الأمريكيين: إن نظرية الصدفة ليست افتراضًا، وإنما هي نظرية رياضية عليا، وهي تطلق على الأمور التي لا تتوفر في بحثها معلومات قطعية، وهي تتضمن قوانين صارمة للتمييز بين الحق والباطل، وللتدقيق في إمكان وقوع حادث من نوع معين، وللوصول إلى نتيجة، هي معرفة مدى إمكان وقوع ذلك الحادث عن طريق الصدفة»(٣).

وفي هذا من التناقض الذي لا يجتمع ما فيه؛ إذ كيف تتفق الصدفة القائمة على العشوائية مع تلك القوانين الصارمة، التي تميز بين الحق والباطل؟ أي علم وعقل هذا؟!

يعبر عن القول بالصدفة عالم الأحياء الإنجليزي "جوليان هكسلي" (١٨٨٧ – ١٩٧٥م)، بقوله: «لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير؛ فكذلك كان الكون الآن نتيجة لعمليات ظلت تدور في المادة لبلايين السنين»(٤).

ويعارض "بولتزر" فكرة الخلق في كتابه: (المبادئ الأساسية في الفلسفة) حيث كتب: «الكون ليس شيئًا مخلوقًا، فإذا كان كذلك فهذا يقتضي أنه خلق في لحظة ما

(١) لا شيء بالصدفة، العلاقة الممكنة بين الإيمان ونظرية التطور، أحمد خيري العمري، الناشر: عصير الكتب للنشر والتوزيع، ب. ت، (ص: ١٧١).
(٢) ينظر: المرجع السابق، (ص: ١٧٢).
(٣) الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، ترجمة: ظفر الإسلام خان، مراجعة: د. عبد الصبور شاهين، الناشر: مكتبة الرسالة، ب ت، (ص: ٨٥).
(٤) المرجع السابق، (ص: ٨٤).

من قبل إله، وبالتالي ظهر إلى الوجود من لا شيء، ولقبول الخلق يجب على الإنسان أن يقبل في المقام الأول أنه كانت توجد لحظة لم يكن فيها الكون موجودًا، ثم انبثق شيء من العدم، وهذا أمر لا يمكن للعلم أن يقبل به»[1].

إذن: هم يقبلون القول بالصدفة، ويعدونه قانونًا يحكم بعض الحوادث التي لا تفسير لها؛ لأن البديل هو القول بالخلق، والإقرار بوجود الله؛ لأن هذا مبني على قاعدة ضرورية أخرى، وهي أنه لا شيء يأتي للوجود بلا سبب؛ فنسبوا السبب للصدفة فرارًا من الإيمان بالإله الخالق وحده.

ويعد القول بالصدفة أصلًا لنظرية التطور في العصر الحديث، فما التطور؟ هذا ما سنلقي الضوء عليه من خلال المطلب التالي:

المطلب الثاني

نظرية التطور

نشأت على يد بعض علماء الأحياء في القرنين الثامن والتاسع عشر الميلادي – وامتد ولا زال حتى يومنا الحاضر – فقدمها الطبيب الإنجليزي "أراسم دارون" (١٧٣١ – ١٨٠٢م) – جد "تشارلز دارون" – بالاشتراك مع الفرنسي "بوفون" (١٧٠٧ – ١٧٨٨م)، وتقول النظرية في صورتها الأولى: إن الأحياء تكتسب صفات معينة أثناء تكيفها مع البيئة، وتنتقل هذه الصفات إلى الأجيال التالية عن طريق الوراثة، فمثلًا تكتسب بعض الحيوانات جلودًا تشبه الدرع، ثم تنتقل هذه الصفة إلى انسالها، ثم قدم العالم الفرنسي "لامارك" (١٧٤٤ – ١٨٢٩م)، نظرية مشابهة لها، بفارق بسيط، وهو العامل الأول في التطور هو الحاجات، فمثلًا عنق الزرافة قد استطال بسبب دوام محاولاتها الوصول إلى أوراق الشجر العالية، كما تكيفت أقدام البط بعد دوام سباحتها في المياه، وبالمقابل تضمر الأعضاء التي لا

(١) خلق الكون من العدم والانفجار الكوني الكبير، هارون يحيى، منتدى الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابط الموقع: https://www.iijazforum.org/sample-. تاريخ الاطلاع: ٢٠٢٣/٦/٢م.

تستعملها الأحياء، ولا تشعر بالحاجة إليها(١).

ولكن النظرية تطورت واتضحت في صورتها الأخيرة على يد "دارون" (١٨٠٩ – ١٨٨٢م)، و"هربرت سبنسر" (١٨٢٠– ١٩٠٣)،و"أرنست هيكل" (١٨٣٤– ١٩١٩م)، ولكنها ارتبطت اسميًا وفعليًا بـــ "دارون" وأصبح يسلم بها كثير من علماء الطبيعة اليوم؛ كتفسير لنشأة الكون والإنسان(٢).

وقد عرفت النظرية بأنها التي تدعي أن كل الكائنات الحية، قد انحدرت من سلف مشترك، عاش في الماضي البعيد، وتدعي ان كاتب وقارئ هذه السطور قد انحدرا من أسلاف شبيهة بالقرود، وأن هذه الأسلاف انحدرت من حيوانات أكثر بدائية، ومع مرور الزمن تتسبب التغيرات التطورية في ظهور أنواع جديدة، وقد سمى "دارون" هذه العملية بالانحدار مع التغير، وما يزال هذا التعريف صالحًا للتعبير عن مفهوم التطور الحيوي حتى اليوم(٣).

وتقرر هذه النظرية أن أصل كل الكائنات الحية التي تعيش في الأرض، كان من خلية واحدة، نشأت قبل قرابة أربعة مليارات سنة، واستمرت هذه الخلية في الانقسام والتكاثر لتتحول من كائن أحادي الخلية، إلى كائنات أكثر تعقيدًا، متعددة الخلايا.

وعبر مئات الملايين من السنين، تطورت هذه الكائنات لتنتج ملايين الأنواع المختلفة من الكائنات الحية مختلفة الصفات والمظاهر، واستمرت بالتكاثر لأجيال عديدة، بينما أسهمت الطفرات الجنينية بظهور صفات جديدة، إيجابية وسلبية، وعملت آلية الانتقاء الطبيعي على تفضيل الصفات الإيجابية، وتصفية السلبية؛ بحيث يكون الكائن الذي يحصل على صفات إيجابية أكثر، يكون أقدر على النجاة

(١) ينظر: دارون ونظرية التطور، شمس الدين آق بلوت، ترجمه عن التركية: أورخان محمد علي، الناشر: دار الصحوة – حلوان – القاهرة، ١٩٨٦م، (ص: ١٠، ١١).

(٢) لسنا بصدد التعرض لهذه النظرية تفصيلًا، بعرضها بأدلتها التفصيلية أو الرد عليها، بل بإيجاز شديد، ونشير إلى علاقتها بالقول بالصدفة، وأنها محاولة من محاولات العلم الحديث لتفسير نشأة الكون، في ظل إنكار وجود الله، والتوجه نحو قدم المادة الأولى التي نشأ عنها الوجود، بلا سبب موجد لها.

(٣) ينظر: أيقونات التطور علم أم خرافة، د. جوناثان ويلز، ترجمة: د. موسى إدريس، د. أحمد ماحي، د. محمد القاضي، ومراجعة وتقديم: عبد الله بن سعيد الشهري، ط/ مركز براهين، الناشر: دار الكاتب للنشر والتوزيع، ط/١، ٢٠١٤م (ص: ٤).

من الانقراض، ومن ثم أقدر على تكوين أجيال جديدة، بينما ينقرض الكائن الذي لم يحصل على هذه الصفة، أو حصل على صفات سلبية، لم تساعده على النجاة من الانقراض[١].

فأساس هذه النظرية هو تطور الكائنات عن طريق الانتخاب الطبيعي والبقاء للملائم والمتكيف مع البيئة؛ «فالحيوانات والنباتات المحلية في مكان بعينه تصبح بعد أجيال كثيرة من الانتخاب التراكمي متلائمة أحسن التلاؤم، للظروف في ذلك المكان، كظروف الطقس مثلًا؛ فإذا كان الجو باردًا تصل الحيوانات إلى أن يصبح لها فراء سميك من الشعر أو الريش، وإذا كان الجو جافًا فإنها تطور بشرة جلدية أو شمعية مانعة لتسرب الماء، حتى تحتفظ بأي كمية ماء قليلة توجد، والتكيف للظروف المحلية يؤثر في كل جزء من الجسم، شكله ولونه، وأعضاءه الداخلية، وسلوكه، وكيمياءه من داخل خلاياه»[٢].

وقد اعتمدت هذه النظرية على أن كل أنواع الكائنات الحية نشأت عن نوع سابق لها في الوجود، والنوع السابق يكون دائمًا أبسط ممن يليه في التركيب، وهكذا، فانطلاقاً من الكائنات الوحيدة الخلية، ومروراً بالأعقد فالأعقد من النباتات والحيوانات، وانتهاء بالإنسان، حيث تصر هذه النظريات على أن الكائنات نشأت بعضها من بعض، وأصلها يعود إلى الكائنات الوحيدة الخلية.

كيف ظهرت الكائنات الوحيدة الخلية؟

التفسير الأول: للعالم السويسري "إرينيوس" (حائز على جائزة نوبل في الكيمياء، ١٩٠٣م) الذي يقول: بأن الكائنات الوحيدة الخلية، مصدرها كائنات مجهرية توجد في فضاء الكون منذ الأزل، حيث انسلت إلى الأرض، ثم تطورت

(١) ينظر: لا شيء بالصدفة، أحمد خيري العمري، (ص: ٥٢).
(٢) الجديد في الانتخاب الطبيعي (بيولوجيا) ريتشارد دوكنز، ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م، (ص: ٢٤٣).

صدفة، فأعطت حيوانات ونباتات صدفة، وعن طريق التطور.

التفسير الثاني: لأرنست هيكل الذي يقول: بأن الكائنات تطورت من جماد، بمعنى أنه في فترة ما من الزمن الماضي، تحولت مواد غير عضوية إلى مواد عضوية صدفة، ثم أعطت أحماض أمينية، التي تحولت بنفسها صدفة إلى بروتينات، ثم إلى صبغيات صدفة، فأعطت كائنات ذات خلية واحدة صدفة، ثم تكونت النباتات والحيوانات وهكذا(١).

فكانت المشكلة والصعوبة الأعظم في هذه النظرية هو هذه الخلية؛ كيف نشأت؟ وما أساسها؟ لم يكن هناك بد لإرجاعها إلى خالق قديم مريد، وهو ما يفرون منه، أو القول بالصدفة، الذي لا يستند إلى دليل علمي لديهم، ويتعارض مع أبسط مبادئ العقل الضروري.

يقول أحد مناصري التطور وأدعياء الصدفة وهو العالم الروسي الشيوعي" أوبارين": «إن قوانين الكيمياء العضوية لا تستطيع تفسير العمليات ذات المستوى الرفيع الجاري في الخلايا الحية» مما اضطره للاعتراف بأن «كيفية ظهور الخلية إلى الوجود تشكل أظلم ركن في نظرية التطور مع الأسف»(٢).

ومن العجيب أن دارون نفسه «لم يتطرق في نظريته لنشأة الحياة؛ فقد كان يعتقد بضرورة التدخل الإلهي لخلق الخلية الأولى، على أن يقوم التطور بعد ذلك بإحداث التنوع الهائل في الكائنات الحية، وبالرغم من ذلك قام مؤسسو الداروينية الحديثة بتوسيع مفهوم التطور ليشمل التطور على المستوى الكيميائي، حتى يستطيعوا من خلاله تفسير ظهور الخلية الأولى، دون الحاجة إلى تدخل إلهي»(٣).

---

(١) نقد نظريات التطور، د. محمد برباب، موقع إعجاز القرآن والسنة، ديسمبر ٢٠١٩م، تاريخ الاطلاع: ٦/٢/ ٢٠٢٣م، رابط الموقع: https://quran-m.com.

(٢) دارون ونظرية التطور، (ص: ٢٩)، كتاب أصل الحياة، (Origin of – lif)، (ص: ١٥٦)، نقلا عن نقد نظريات التطور، وينظر: عن تصوره لبدأ الخلق: خلق الإنسان بين العلم والقرآن، د. حمد الرقعي، الناشر: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع – ليبيا – ط/١، ١٤٢٥هـ، (ص: ١٦).

(٣) خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، (ص: ١٩٧).

يعبر عن ذلك "دوكنز" مبيناً معنى الانتخاب الطبيعي: هو «تلك العملية الأوتوماتيكية العمياء غير الواعية، التي اكتشفها دارون، والتي نعرف الآن أنها تفسر بيولوجيا الحياة، فليس له عقل فيه هدف، إنه بلا عقل، وبلا عين لعقل، وهو لا يخطط للمستقبل، وليس له رؤية، ولا بصيرة للأمام، ولا بصر على الإطلاق، وإذا كان من الممكن أن يقال عنه إنه يلعب دور صانع الساعات في الطبيعة، فهو صانع ساعات أعمى»(١).

فمصمم الساعات الطبيعية عنده (العين، الإذن، كل الحواس الأخرى، إلخ) هو مصمم أعمى، وهو لا يقصد الخالق، فهو لا يؤمن بوجود خالق أصلًا، بل يقصد أن عملية الانتخاب الطبيعي، عملية عمياء تمامًا، بلا هدف(٢).

المطلب الثالث

العلاقة بين القول بالصدفة ونظرية التطور

من الموقف الأخير لـــ "دوكينز" والذي يفسر فيه مبدأ الانتخاب الطبيعي معتمدًا على الصدفة نرى الارتباط واضحًا بينهما، كما تتبين هذه العلاقة في «أن هناك تيارًا داخل التطوريين يأخذ بوجود جانب من العشوائية في بعض آليات نظرية التطور، ويفسح المجال لبناء صورة عبثية فوضوية للعالم، في الوقت نفسه هناك تيار آخر، آخذ بالازدياد والقوة بالتدريج، لا يرى هذه العشوائية، ويقدم صورة أكثر توازنًا لآليات نظرية التطور، ففكرة أن (كل شيء بالصدفة) فكرة محبطة عبثية، وهي تشكل رأس الحربة الحقيقي في دعوة الإلحاد الجديد المنتشر حاليًا»(٣).

(١) الجديد في الانتخاب الطبيعي (بيولوجيا) ريتشارد دوكنز، (ص: ٢٦).
(٢) ينظر: لا شيء بالصدفة، العلاقة الممكنة بين الإيمان ونظرية التطور، أحمد خيري العمري، (ص: ١٦٦).
(٣) المرجع السابق، (ص: ٢٠٧، ٢٠٨)

فنظرية التطور ليست إلا محاولة لإقامة الحياة على أساسين ومفهومين خاليين من الحياة والشعور، وهما الصدفة والانتخاب الطبيعي، فمحاولات التفسير بافتراض تحول المواد غير العضوية إلى مواد عضوية بمرور الزمن، وتكون الخلية الأولى العضوية صدفة من هذه المواد العضوية، ثم تحول هذه الخلية الأحادية الحية إلى الأشكال المتعددة، التي نراها حاليًا نتيجة التطور، وبطريق الصدفة أيضًا.. هذه المحاولات لم تستطع حتى الآن العثور على أي مرتكز علمي أو منطقي لها(١).

ويلاحظ أن "دارون" يحاول الفرار أو تجنب استخدم كلمة (الصدفة) في كتابه الذي وضع فيه أسس نظريته، وهو كتابه "أصل الأنواع"؛ فيقول في مقدمة الفصل الخامس منه: (لقد تحدثت في بعض الأحيان كما لو أن الاختلافات – الشائعة جدًا ومتعددة الأشكال، سواء في الحيوانات المدجنة أو البرية – كانت بسبب الصدفة، هذا بالطبع تعبير خاطئ تمامًا، ولكنه يفسر فقط جهلنا بأسباب هذه الاختلافات)(٢).

ولكنه يقول في رسالته الجوابية إلى طالب ألماني سنة ١٨٧٩م" (نستطيع القول أن مفصل الباب مصنوع من قبل الإنسان، ولكننا لا نستطيع الادعاء بأن المفصل المدهش الموجود في صَدَفَة المحار، هو من صنع كائن عاقل)، فيقع دون أن يلحظ في تناقض عجيب؛ فمفصل الباب البسيط معمول من قبل الإنسان، ولكن المفصل الحي – الذي يصفه بالمدهش – ليس إلا نتيجة للصدفة(٣).

وبذا تخرج النظرية من كونها حقيقة علمية ثابتة، إلى كونها فكرة خيالية، تخبط خبط عشواء، كل أغراضها تفسير نشأة الكون، بعيدًا عن التصورات الدينية، التي تؤكد الحدوث من عدم، وتؤدي إلى القول بوجود خالق له، وهو ما ينفرون منه أشد النفور، ويبحثون عن مخرج لهم، مهما كلفهم الأمر من اتهامهم بعدم العقلانية،

(١) ينظر: دارون ونظرية التطور، (ص: ١٠).
(٢) ينظر: لا شيء بالصدفة، (ص: ٢١٠، ٢١١).
(٣) ينظر: دارون ونظرية التطور، (ص: ١٤).

ومعارضة الفكرة الدينية لمجرد المعارضة؛ لتبرير الإلحاد وإنكار وجود الله فحسب.

ويتبين لنا مما سبق أن القائلين بقدم العالم في العصر الحديث يجمعهم فريقان:

فريق يقول بالصدفة وعدم وجود بداية للكون.

وفريق يقول بالتطور، وبينهما عموم وخصوص وجهي، فيجتمعان في نفي السببية، وتنفرد الصدفة في العشوائية، وينفرد التطور في محاولة إيجاد صيغة علمية لكيفية نشأة الموجودات من بعضها بعضًا.

ومن هنا يتعين علينا الرد أولًا – وباختصار – على القائلين بالصدفة وعدم ابتداء الوجود، ثم الرد ثانيًا على القائلين بالتطور، وهم القائلون بقدم العالم في العصر الحديث، وذلك عبر المبحث التالي:

المبحث الثالث

الرد على القائلين بالقدم بالأدلة العلمية الحديثة

بينما تعد الفلسفة وجود الكون من أهم قضاياها، وتطرح حوله أهم أسئلتها: لماذا وجد الكون؟ لماذا ظهر الوجود بدلًا من أن يمتد العدم؟ نجد أن المفهوم الأساسي الذي ينطلق منه العلماء والفلاسفة الملاحدة هو أن الكون موجود، وعلينا فقط دراسته، وإذا كان لأي كون بداية مسلسلة، فلنبدأ سلسلتنا بالانفجار الكوني الأعظم، ويساند الفيلسوف الإنجليزي "برتراند رسل" هذا الرأي بقوله: إن كوننا هذا هو أحد الأشياء التي يمكن أن تحدث من وقت لآخر.

ويقدم آخر طرحًا ساذجًا فيقول: إن الزمكان (الزمان والمكان) قد شكل ذاته[1].

وهذا تهرب منهم بوجود المؤثر الموجد؛ لأن البديل هو الاعتراف بوجود الإله الخالق، وهو ما يهربون من مجرد التفكير فيه؛ لأنهم في الحقيقة أهل زيغ وهوى، لا أهل علم أو بحث موضوعي.

فهم ينكرون ويرفضون فكرة أن للكون بداية، فتشتت بهم السبل إلى المذاهب التي سقناها، والتي نرد عليها من خلال الآتي:

المطلب الأول

الرد على القائلين بالصدفة

قام المفكرون والعلماء المتخصصون بالرد على هذا القول، وتنوعت ردودهم بين النظرية العقلية والعملية التجريبية، ونستعرض فيما يلي الردود النظرية، ثم نتبعها بالعملية المتخصصة.

أولًا: الردود النظرية العقلية

حاول الماديون على مدى التاريخ تقديم الآليات والتفسيرات العشوائية، التي

(١) ينظر: خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، (ص: ١٢٤).

تسمح بنشأة الكون من العدم على هذه الهيئة؛ وذلك تهربًا من إرجاعها إلى الإله الخالق، فخرجت أطروحاتهم ملأى باللامعقولية واللاعلمية، والكثير منها أقرب إلى الخيال العلمي، ويكفي لإثبات ذلك أن نذكر مثالًا للدقة التي ينبغي أن تنتهجها العشوائية حتى تسمح بنشأة الحياة، وهذا المثال شبيه بأن تصوب من أحد أطراف الكون سهمًا إلى عملة معدنية، تقع في الطرف الآخر (على بعد عشرين بليون سنة ضوئية) فتصيبها؛ فإن وثقت في قدرتك على فعل ذلك، فلتثق في قدرة العشوائية على إنشاء الكون الصالح لنشأة الحياة(١).

ولقد تصدى "ريتشارد سوينبرن" (الفيلسوف المؤمن) لادعاءات الملحدين، بإعادة طرح ما يعرف ببرهان "فترة الترك"(٢)؛ فهو يقول: «إذا كان العدم يمتد إلى مالا نهاية في القدم، وإذا كان للكون بداية، فلمَ نشأ في هذا الوقت الذي نشأ فيه؟ لم تُرك الكون دون نشأة لفترة، ثم حدث في وقت ما في الزمن اللانهائي أن خرج الكون للوجود؟ لا بد أن هناك عاملًا مرجحًا دفعه للوجود»(٣).

يقول البروفيسور: "إيدوين كونكلن" أستاذ علم الأحياء في جامعة "برنستون": «إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقي، شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم، نتيجة انفجار صُدفي يقع في مطبعة»(٤).

وإذا ما كانت الصدفة موجودة في حياتنا باسمها ومسماها، فما ذلك إلا لأننا نجهل سبب حدوثها، وهذا يتعارض مع قانون الصدفة نفسه، يقول بعض علماء الطبيعة(٥):

(١) ينظر: براهين وجود الله، د. سامي عامري، (ص: ٤٧٣)، خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، (ص: ١٤٦، ١٤٧).

(٢) وهو يخبر أنه استقاه من علم الكلام عند المسلمين، ويعني أن الكون إذا كان قد نشأة في زمان معين، فلم نشأ في هذا الوقت بالذات، وترك دون وجود لفترة معينة؟.

(٣) رحلة عقل، د. عمرو شريف، (ص: ٨١، ٨٢).

(٤) الإسلام يتحدى: وحيد الدين خان، (ص: ٨٥).

(٥) وهو فرانك آلن، عالم الطبيعة البيولوجية الأمريكي، في بحث له بعنوان: نشأة العالم هل هو صدفة أو قصد، ضمن سلسلة أبحاث الله يتجلى في عصر العلم.

صحيح أن بعض نظريات المصادفة والاحتمالات لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع؛ حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق، وهذه النظريات تضع أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب، مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم، ومع تقدم دراسة نظرية الاحتمال والمصادفة من الوجهة الرياضية حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي يقال إنها تحدث بالمصادفة، والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى، مثل قذف الزهر في لعبة النرد، وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة، وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في مدى معين من الزمان[١].

«فالقول بالصدفة جهل بأصول الاحتمالات؛ لأن الصدفة لها شرطان، لا ينفكان عنها، وهما: الزمان والوجود؛ فهي تشترط زمان تقوم فيه بإحداث أثرها، وتشترط وجود مادي مكاني تقوم عليه لينتج مفعولها، فكيف نقول بدور الصدفة في إيجاد الكون، مع أن كوننا جاء من اللازمان واللامكان؟ كيف يظهر أثر الصدفة دون ظهور الصدفة نفسها؟ كيف تعطي الصدفة أثرًا قبل وجودها، ووجود الزمان، ووجود المكان اللذان هما شرطا الصدفة الأساسيان؟»[٢].

فالصدفة تفتقر إلى الزمن، والذي يفتقر إلى شيء يأتي بعده، والصدفة جاءت تالية للزمن؛ لأنه شرط وجودها، وكوننا هذا ظهر من اللازمن، أي من الصدفة، كما أنها تفتقر بدورها للمادة، التي ستطبق نفسها عليها؛ فالمادة سابقة على الصدفة؛ لأن شرط وجود الشيء سابق عليه، فكيف يمكن يفسر ظهور مادة الكون بالصدفة مع أن الصدفة لن تظهر إلى بعد ظهور مادة الكون، والكون كله ظهر من اللامكان أصلًا؟

(١) ينظر: الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين، (ص: ١٥).
(٢) عيادة الملحدين، د. هيثم طلعت، الناشر: دار اليسر – القاهرة – ط/١، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص: ١٨).

إذن فظهور المادة من الصدفة باطل؛ لأن المادة شرط لوجود الصدفة، كما أن زهر النرد شرط لعامل الصدفة في لعبة النرد(١)، فلا بد من وجود الزهر في زمكان وماكن حتى إذا طرح وأظهر جانبًا منه حكمنا عليه بالصدفة، أما قبل وجود الزهر نفسه فلا صدفة

فمن يتمسك اليوم بمنظور العشوائية والصدفة في تفسير نشأة الحياة، لا يثبت إلا جهله الشديد بقوانين الصدفة والوجود ذاته، وكذا علم البيولوجيا؛ فإن معظم العلماء الماديين المهتمين بأصل الحياة منذ ستينات القرن العشرين، يرفضون منظور الصدفة، ويعترفون بعجزهم عن التفسير(٢).

«فلم يبق حاليًا أي مجال لأمثال هذه الادعاءات، بعد ظهور فروع لعلوم جديدة عدة بعد "دارون" مثل: علم الوراثة، والفيزياء الحيوية، والكيمياء الحيوية، والرياضيات الحياتية؛ فهذه العلوم تعرض الآن أمام أعيننا عوالم مدهشة، مذهلة، متداخلة فيما بينها بتعقيد كبير، ولم يعد للتستر وراء ألفاظ مثل الصدفة أو الطبيعة أية فائدة أو أي عناء»(٣).

حقيقة، إن العلوم المادية تعالج كثيرًا من الظواهر الطبيعية التي تحدث في الكون، وبالرغم من أن هذه العلوم لا تؤيد وجود عالم غير مادي تأييدًا كاملًا؛ فإنها لا تستطيع أن تنفي بصورة قاطعة وجود عوالم أخرى غير مادية وراء العالم المادي؛ فإننا نستطيع بطريقة الاستدلال والقياس بقدرة الإنسان وذكائه، أن نصل إلى وجوب وجود قوى مسيطرة مدبرة، تدير هذا الكون وتدبر أموره، وتعيننا على فهم ما يغمض علينا من أمر منحنيات التوزيع، ودورة الماء في الطبيعة، ودورة ثاني أكسيد الكربون فيها، وعمليات التكاثر العجيبة، وعمليات التمثيل الضوئي، ذات الأهمية البالغة في اختزان الطاقة الشمسية، وما لها من أهمية بالغة في حياة

(١) ينظر: المرجع السابق، (ص: ٢١).
(٢) خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، (ص: ١٦٩).
(٣) ينظر: دارون ونظرية التطور، (ص: ٣١).

الكائنات الحية، وما لا يحصى من عجائب هذا الكون؛ إذ كيف يتسنى لنا أن نفسر هذه العمليات المعقدة المنظمة تفسيرًا يقوم على أساس المصادفة والتخبط العشوائي؟ وكيف نستطيع أن نفسر هذا الانتظام في ظواهر الكون والعلاقات السببية، والتكامل، والغرضية، والتوافق، والتوازن، التي تنتظم سائر الظواهر، وتمتد آثارها من عصر إلى عصر؟ كيف يعمل هذا الكون دون أن يكون له خالق مدبر، هو الذي خلقه وأبدعه، ودبر سائر أموره؟[1].

إن «المصادفة لا تفهم إلا كطرف في مقابلة الضرورة؛ ولذا يستبعد كل منهما الآخر؛ فالشيء إما ضروري أو مصادف، ولكن لا سبيل إلى أن يكون ضروريًا ومصادفًا في وقت واحد، ولما كان الضروري هو موضوع العلم كانت المصادفة هي الموضوع الذي يتجنبه العلم، ولا يكترث به؛ ذلك لأن الضروري يمكن صياغته في قانون، أما المصادفة فلا تخضع لتحديد القانون، فلا سبيل إذن إلى العلم بها، وفي هذا يكون ما يمكن تقنينه علمًا وما يستعصى على القانون يخرج عن قداسة العلم، أو بتعبير آخر، ما يمكن أن يخضع للقوانين العامة يعد ضروريًا، وما لا يمكن إخضاعه يعد مصادفة ويستبعد، ولكن الأشياء جميعًا تنتظمها قوانين ضرورية يقينية، وإن يكن علمنا بهذا النظام علمًا محدودًا؛ ولهذا فنحن نعزو إلى المصادفة ما خفيت ضرورته عنا. المصادفة إذن ليست إلا علة وهمية ابتدعها جهلنا»[2].

إنها جواب الجهلاء عما جهلوه من قوانين وسنن تحكم الكون، وتفسر عمل الأسباب في مسبباتها، فهي الأسس التي تقوم عليها المعرفة الرياضية والفيزيائية، ومنشأ ما تتسم به من ضرورة وكلية؛ فكل شيء في الحقيقة يحدث في نطاق

(١) ينظر: الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين، من بحث بعنوان: درس من شجيرة الورد، كتبه: ميريت ستانلي كونجدن، (ص: ٢٥، ٢٦).
(٢) فلسفة المصادفة، محمود أمين العالم، (ص: ٣١).

تجربتنا يتسم بالضرورة والكلية؛ لأنه مشروط بقدراتنا القبلية[١]، ولولاها لما وجد شيء اسمه الطبيعة؛ ولهذا فإن القول بأن لا شيء يحدث بالمصادفة هو قانون قبلي للطبيعة في حدود هذا الفهم الظاهري لها؛ ذلك لأن الطبيعة دائمًا مشروطة بشروط قبلية تتسم بالضرورة والكلية[٢].

ثانيًا: ردود العلماء التجريبين

إن التطورات الهامة التي تمت في جميع العلوم الطبيعية، خلال المائة سنة الأخيرة، بما في ذلك الكيمياء، قد حدثت باستخدام الطريقة العلمية في المادة والطاقة، التي أدت إلى التخلص من كل احتمال من الاحتمالات الممكنة، التي تجعل النتيجة راجعة إلى محض الصدفة.

كما أثبتت الدراسات العلمية أن سلوك أي جزء من أجزاء المادة، مهما صغر، لا يمكن أن يكون سلوكًا عشوائيًا، بل إنه على النقيض من ذلك يخضع لقوانين طبيعية محددة، فبمجرد معرفة القانون يثق علماء الكيمياء فيه كل الثقة، وليس من المعقول أن يكون لديهم هذه الثقة، لو أن سلوك المادة والطاقة كان من النوع العشوائي، الذي تتحكم فيه المصادفة؛ فإن أي أثر لفكرة العشوائية أو المصادفة في سلوك المادة أو الطاقة سوف يندثر اندثارًا تامًا.

فمنذ مائة سنة تقريبًا رتب العالم الروسي "ماندليف" العناصر الكيميائية، تبعًا لتزايد أوزانها الذرية ترتيبًا دوريًا، فوجد أن العناصر التي تقع في قسم واحد تؤلف فصيلة واحدة، يكون لها خواص متشابهة، فهل يمكن إرجاع ذلك للمصادفة؟

وهل يمكن أن نفسر على أساس المصادفة ما توصل إليه العلماء من تفاعل ذرات عنصر «أ» مع ذرات عنصر «ب» وعدم تفاعلها مع عنصر «جـ»؟ كلا؛ إنهم قد فسروا ذلك على أساس أن هناك نوعًا من الميل أو الجاذبية بين جميع ذرات

(١) هي مبادئ فطرية ضرورية موجودة سابقًا في العقل، ككون الكل أكبر من الجزء، والواحد ضعف الاثنين، وما إلى ذلك من مبادئ العلم التصوري والتصديقي البديهي.
(٢) ينظر: فلسفة المصادفة، (ص: ٩٩).

عنصر «أ» وجميع ذرات عنصر «ب»، ولكنهما منعدمان بين ذرات عنصر «أ» وذرات عنصر «جـــ».

وقد أثبت اكتشاف تركيب الذرة أن التفاعلات الكيميائية، التي نشاهدها، والخواص التي نلاحظها، ترجع إلى وجود قوانين خاصة، وليس مجرد محض مصادفة عمياء(١).

إن ادعاء الصدفة والعشوائية كتفسير لنشأة الكون هو في الحقيقة ادعاء مثير للدهشة، وغير معقول، حتى لدى العلماء الذين آمنوا به، كتفسير وحيد لديهم لنشأة الكون، فالقانون الثاني الديناميكا الحرارية أثبت أن الكون ليس أزليًا، وأن له بداية في الزمان؛ فمكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيًا، وسائرة حتمًا إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض، هي الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة، وتستحيل الحياة(٢)، وهو يناقض القانون الأول، الذي كان يقول: «الطاقة لا تفنى ولا تستحدث من عدم»، فجاء القانون الثاني يقرر أن الحرارة تنتقل في اتجاه واحد من الجسم الأسخن إلى الأبرد ، ولا ترتد في الاتجاه المغاير، وهذا يؤدي إلى الموت الحراري للكون؛ وبالتالي لو كان الكون قديمًا أزليًا لأصبح الآن ميتًا حراريًا، ولكن وجود الحياة الآن يثبت العكس، وهذا يعني أن الكون له بداية(٣).

إن ملايين الأنواع من المواد المختلفة، سواء أكانت عناصر أم مركبات، تتألف من جزيئات كهربية، ليست في الواقع إلا مجرد صور أو مظاهر من الطاقة،

---

(١) ينظر: الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين، من بحث بعنوان: النتيجة الحتمية، جون كليفلاند كوثران، (ص: ٢٧- ٢٩).

(٢) ينظر: المرجع السابق، من بحث: فلننظر إلى الحقائق دون تحيز أو ملل، إدوارد لوثر كيسيل، (ص: ٣٣).

(٣) ينظر: فمن خلق الله، "نقد الشبهة الإلحادية: إذا كان لكل شيء خالق، فمن إذا خلق الله؟ في ضوء التحقيق الفلسفي والكشف الكوسمولوجي"، د. سامي عامري، الناشر: تكوين للدراسات والأبحاث، السعودية، ط٢، ١٤٣٨، ٢٠١٧م، (ص: ١٠١)، مولد الزمان، جون جريبن، ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م، (ص: ٤٢).

والمادة بجميع مكوناتها، والكهرباء والطاقة ذاتها، إنما تخضع جميعًا لقوانين معينة، وليست وليدة المصادفة؛ بحيث يكفي عدد قليل جدًا من ذرات أي عنصر للكشف عنه، ومعرفة خواصه، وعلى ذلك فإن الكون المادي يسوده النظام وليس الفوضى، وتحكمه القوانين وليس المصادفة، أو التخبط، فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟ أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها؟ لا شك أن الجواب سيكون سلبيًا(١).

لقد وقفت النظريات العلمية المكتشفة حديثًا، أمام القائلين بالصدفة – كحجر عثرة – في سبيل ترويج هذه الخرافات، ومن هذه النظريات: نظرية الانفجار الكوني الأعظم [Big Bang theory]، وهي أكثر النظريات قبولًا لتفسير بداية خلق الكون، وتؤكد النظرية أن الكون نشأ نتيجة لانفجار هائل، حدث في نقطة تتجاوز كل قوانين الفيزياء المعروفة، وتسمى هذه النقطة «المفردة singularity».

لقد ثبت علميًا أن الكون له بداية، ترجع إلى حوالي ١٣,٧ بليون سنة مضت(٢).

كانت فكرة الانفجار الكبير تزعج "آينشتاين"؛ لأن لازمها أن للكون بداية، فيقول: «إن مسألة كون يتمدد هذه تقلقني» لما لها من لوازم لاهوتية، الأمر الذي دعا "ستيفن هوكنج" أن يقول عنها: «إنها المسمار الأخير في نعش نظرية الكون الثابت المستقر»(٣).

فعندما وضع "آينشتاين" نظرية "النسبية العامة" عام ١٩١٥م، أظهرت حساباته أن الكون إما يتمدد أو ينكمش، مما يعني أنه لا يمكن أن يكون أزليًا، ولا بد أن تكون له بداية، وللخروج من هذا المأزق، وضع "آينشتاين" في معادلاته ثابتًا أسماه:

(١) ينظر: الله يتجلى في عصر العلم، من بحث النتيجة الحتمية، لجون كليفلاند كوثران، (ص: ٣٠)، قارن بحث بعنوان: المبدع الأعظم، كتبه: كلود. م. هاتاواي، (ص: ٩٦، ٩٧).

(٢) ينظر: رحلة عقل، د. عمرو شريف، (ص: ٧٩)، عالم الصدفة، بول ديفيس، ترجمة فؤاد الكاظمي، مراجعة: د. خالد ناجي، الناشر: دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ط/١، ١٩٨٧م، (ص: ٢٠).

(٣) ينظر: شموع النهار، عبد الله بن صالح العجيري، (ص: ١٢٧، ١٢٩).

"الثابت الكوني" ليتغلب به على تأثير الجاذبية؛ ليصبح حجم الكون ثابتًا، ويصبح الكون أزليًا، ثم سمع "آينشتاين" أن "إدوين هابل"[١] قد توصل عام ١٩٢٩م، إلى ظاهرة الإزاحة الحمراء للمجرات[٢]، والتي تعني أن المجرات تتباعد، وأن الكون يتمدد؛ مما يدل على أن له بداية، وعندما زاره "آينشتاين" في مرصده، وتأكد بنفسه من صدق ما سمعه، فاعترف أن وضعه الثابت الكوني لتأكيد أزلية الكون، يعتبر أكبر خطأ علمي في حياته[٣].

ويطرح العلم مفهومًا آخر شديد الدلالة، على أن الكون قد نشأ من عدم؛ فها هو الفيزيائي "إدوارد تريون" «Edoward Tryon» يخبرنا عام ١٩٧٣م أن طاقة الكون عند بدايته كانت صفرًا [لا شيء].

ولم يجد "هوكنج" مفرًا من الإقرار بأنه من المستحيل فيزيائيًا معرفة كيف بدأ الانفجار الأعظم، فيقول: «إذا كنا نعلم بعض ما حدث منذ الانفجار الأعظم (وتزداد معرفتنا مع تقدم العلم)، فإننا لا نستطيع تحديد ما كان قبل ذلك، إن ظروف ما قبل الانفجار الأعظم لا يجب أن تشكل أي جزء من تصورنا العلمي للكون، علينا أن نكتفي بأن نقول: إن الانفجار الأعظم هو بداية الزمن، ويعني ذلك أن الأسئلة التي تدور حول كيف تهيأت الظروف لهذا الانفجار، ليست بالأسئلة التي يتناولها العلم»[٤].

ونجده أيضًا يقول مضطرًا إلى القول: إذا كانت هناك معادلات تشير إلى احتمالية نشأة شيء من لا شيء، فستظل هذه المعادلات دائمًا في حاجة إلى من ينفخ فيها القدرة على الفعل؛ فالمعادلات لا تخلق لكنها تصف الفعل[٥].

---

(١) Edwin Hubble. أمريكي (١٨٨٩ – ١٩٥٣م)، أحد أشهر علماء الفلك في القرن العشرين، صاحب الفضل في الاهتمام بالمجرات الأخرى غير مجرتنا. خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، هامش (ص: ١١٣).

(٢) وتعني أنه إذا تحرك مصدر ضوئي بعيدًا عن الراصد فإن ألوان الطيف الصادرة منه يعتريها زيادة في اللون الأحمر، وقد لا حظ "هابل" هذه الزيادة في الضوء الأحمر الصادر من المجرات، فأدرك أن المجرات تتباعد عنا، واستنتج أن الكون يتمدد. خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، هامش (ص:١١٣).

(٣) ينظر: خرافة الإلحاد، (ص ١١٣)، دقيق الكلام "الرؤية الفلسفية لفلسفة الطبيعة" د. محمد باسل الطائي، ط/ عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن – ط/١، ٢٠١٠م، (ص: ١٢٧-: ١٢٨).

(٤) وهم الإلحاد، د. عمرو شريف، (ص: ١١٦).

(٥) ينظر: رحلة عقل، د. عمرو شريف، (ص: ٧٩: ٨٢).

إن ادعاء أن قوانين الطبيعة قد أوجدت الكون هو «خبل»، أما أن أصف ذلك بأنه علم فـ «احتيال رخيص»، إن النظريات والقوانين تصف مسار الأمور بدقة، لكنها لا تخرج شيئًا للوجود(١).

فقوانين "نيوتن" للحركة – مثلًا – يمكنها أن تصف مسار كرة البلياردو، ولكن من الذي يحركها؟ إنه اللاعب الذي يمسك بالعصا، فالقوانين تحتاج إلى موجود تؤثر فيه قوة، في مكان وزمان ما، وبدون هذه العناصر الأربعة (المادة – الطاقة – المكان – الزمان) لا تستطيع القوانين أن تعمل، بل لن تكون هناك قوانين.

ويمكننا أن نفهم شيئًا عن قانون الصدفة – إن كان لها قانون – من المثال التالي:

لو تناولت عشرة دراهم، وكتبت عليها الأعداد من ١ إلى ١٠، ثم رميتها في جيبك، وخلطتها جيدًا، ثم حاولت أن تخرجها من الواحد إلى العاشر بالترتيب، فإمكان أن تستخرج الدرهم المكتوب عليه (١) في المحاولة الأولى هو واحد على عشرة، وإمكان أن تتناول الدرهمين (١، ٢) بالترتيب، هو واحد في المائة، وإمكان أن تخرج الدراهم (١، ٢، ٣، ٤) بالترتيب، هو واحد في العشرة آلاف... حتى إن الإمكان في أن تنجح في استخراج الدراهم من واحد إلى عشرة بالترتيب، هو واحد في عشرة بلايين من المحاولات.

ضرب هذا المثال العالم الأمريكي الشهير "كريسي موريسين" ثم استطرد قائلًا: إن الهدف من إثارة مسألة بسيطة كهذه، ليس إلا أن نوضح كيف تتعقد الوقائع بنسبة كبيرة جدًا في مقابل الصدفة(٢).

وما أصح ما قاله عالم الأعضاء الأمريكي: "مارلين ب كريدر: «إن الإمكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق عن طريق الصدفة في نسبتها الصحيحة، هو ما يقرب من لا شيء»(٣).

(١) وهم الإلحاد، د. عمرو شريف، (ص: ١١٢٥).
(٢) ينظر: الإسلام يتحدى: وحيد الدين خان، (ص: ٨٦)، دارون ونظرية التطور، (ص: ١٥).
(٣) ينظر: الإسلام يتحدى: وحيد الدين خان، (ص: ٩٢).

المطلب الثاني

الرد على القائلين بالتطور

اعتمدت النظرية – فيما طرحناه من عرض لها – على عدة مبادئ أساسية، وهي: اعتمادها على الاتفاق وعدم السببية، والانتخاب الطبيعي، ونسبة التطور لخلية أولى غير حية، وفي إطار نقد النظرية، نرد على هذه المبادئ واحدًا تلو الآخر:

أولًا: نقد الاتفاق والمصادفة

يمكن اعتبار التطور آلية لكيفية الخلق، مع الاعتراف بخلق المادة الأولى التي خلق منها الكون[1]، ولكن لا يمكن الاعتماد عليه أبدًا في إسناد خلق العالم إلى جمادات أورثت خلية أو جرثومة، نشأت بالاتفاق والصدفة، وعنها تكوَّن العالم بكل ما فيه من دقة وتعقيد؛ لأن المستند هنا هو القول بالصدفة، التي هي ضرب من الوهم والخيال، فهي قاعدة باطلة من الأساس، لا علاقة لها بالعقل النظري البدهي، أو التصديق العلمي الضروري، أو الواقع الحسي التجريبي.

ولنضرب مثالًا من الواقع على ذلك؛ فنرى عناصر الأرض من حديد وخشب ونحاس وغير ذلك، لا تستطيع أن تصنع من نفسها سيارة، ولا حتى إبرة، ولو أخذ الإنسان هذه العناصر، وصنع منها قطعًا تصلح لتكون آلة، ولكنه لا يركبها تركيبًا فنيًا، بل يتركها متفرقة؛ فإنها لا تستطيع أيضًا أن تكون شيئًا، بل تبقى قطعة كما صنعتها يد الإنسان.

---

(١) ولذلك لم يرفض كثير من علماء الإسلام النظرية كتفسير لكيفية نشأة الكون، وإنما الرفض لها كان من جانب تيار الصدفة والعشوائية، التي تعود إليها النظرية في بعض جوانبها، ولا شك أن ذلك يؤدي إلى إنكار وجود الخالق، ينظر: لا شيء بالصدفة، أحمد خيري العمري، ص: (٢٠١، ٢٠٧)، كما ينصب الرفض على القول بتطور خلق الإنسان؛ ولكن يمكن أن يعد التطور – كما يرى علماء الطبيعة – «أحد عوامل عملية الخلق؛ فالتطور إذن ليس إلا إحدى السنن الكونية أو القوانين الطبيعية، وهو كسائر القوانين العلمية الأخرى يقوم بدور ثانوي؛ لأنه هو ذاته يحتاج إلى من يبدعه، ولا شك في أنه من خلق الله وصنعه، والكائنات التي تنشأ بطريق الانتخاب الطبيعي قد خلقها الله أيضًا، كما خلق القوانين التي تخضع لها». ينظر: الله يتجلى في عصر العلم، من بحث: فلننظر إلى الحقائق دون تحيز أو ملل، إدوارد لوثر كيسيل، (ص: ٣٥).

ولو أخذنا قطعًا من الفولاذ والزجاج والنحاس والمطاط وغيرها من المواد، ثم وضعناها في برميل، وحركنا البرميل آلاف المرات، فهل تتحول هذه المواد إلى شيء آخر، بأن تصبح سيارة مثلًا، أو تصبح خزانة؟ كلا إن هذا لا يحدث قط مهما أعيدت التجربة(١).

ومن هذا الواقع علينا أن ندرك حقيقة أساسية، وهي: أن الجماد غير قادر على تحسين نفسه بنفسه، بل هو على الضد، يميل إلى التجرد أو الاستقرار، ولا فائدة قط من الاعتماد على طول الزمن؛ لأن طول الزمن يؤدي إلى الانحلال والتفكك، ويسبب انقراض المعادن وتفتت الصخور.

إن الزمن عامل رئيس للهدم وليس للبناء، والزمن هو عدو التطور، وهذا ثابت أيضًا بقانون عدم الحركة القاضي بأن كل الأجسام تبقى ثابتة، إذا لم تحرك بعامل خارج عنها، فإذا حركت اتجهت اتجاهًا واحدًا، إلا إذا تحركت بقوة خارجة(٢).

والجماد محروم من الحركة، ومن القوة، ومن الحياة، ويبقى عديم الحركة حتى تحركه يد خارج مسيرة ومنظمة، فمن غير المقبول علميًا أن تستطيع مجموعة عضوية أن تتكون من غير حياة، ولا يستطيع المرء أن يتصور وجود مواد غير عضوية، في الحالات التي يستطيع الفحم والأوكسجين والهيدروجين أن تتحد؛ لتكون سكرًا مثلًا، فضلًا عن الماء، وغاز الفحم(٣).

يقول أحد علماء الأحياء(٤).: «لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر لنا كيف نشأت الحياة من عالم الجمادات، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من

(١) ينظر: خلق لا تطور، الإنسان ابن آدم، وليس ابن قرد، تأليف: فريق من العلماء، عربه: د. إحسان حقي، ط/ دار النفائس، ب ت، (ص: ٣٥، ٣٦).

(٢) هذا هو قانون القصور الذاتي الذي صاغه "نيوتن" وأخذه عن "ديكارت" هو: أن جميع الأجسام تتحرك بسرعة ثابتة في خط مستقيم، إذا لم يعقها شيء فالجسم قاصر بذاته عن تغيير حالته، ولا بد من مؤثر خارجي، وهو القوة، أي: تحركه قوة خارجة عنه. ينظر: حكمة الغرب، برتراند رسل، ترجمة: د. فؤاد زكريا، ط/ عالم المعرفة، عدد ديسمبر ١٩٨٣م، (٤٤/٢)، رجال عاشوا للعلم، جيمس نيومان، ميشيل ويلسون، ترجمة: أحمد شكري سالم، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ٢٠٠١م، (ص: ٤٥).

(٣) ينظر: خلق لا تطور، (ص: ٣٦).

(٤) وهو رسل تشارلز آرنست، أستاذ علم الأحياء في جامعة فرانكفورت بألمانيا.

البروتوجين أو من الفيروس، أو من تجمعات بعض الجزيئيات البروتينية الكبيرة، وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات، ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به، هو أن جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية، قد باءت بخذلان وفشل ذريعين، ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع، على أن مجرد تجمع بعض الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة، يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة، وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية، وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير في نشأة الحياة، فهذا شأنه وحده، ولكنه إذ يفعل ذلك فإنه يسلم بأمر أشد إعجازًا وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله، الذي خلق هذه الأشياء ودبرها»[1].

ثانيًا: نقد الانتخاب الطبيعي

تزعم نظرية التطور ظهور الأحياء المتعددة، وانقسامها إلى هذه الأنواع الموجودة حاليًا عن طريق الانتخاب الطبيعي، ونتيجة للصراع الموجود في الحياة؛ فإن الأقوياء يبقون وينقلون صفاتهم إلى أنسالهم عن طريق الوراثة، بينما تضمحل وتزول الأنواع الضعيفة، بفعل الانتخاب الطبيعي بين الأحياء.

وهذه نقطة ضعيفة جدًا في النظرية؛ فمنظار هذا الانتخاب نفسه، فإن من الضروري أن يكون عدد أنواع الأحياء في الماضي أضعاف أضعاف العدد الموجود حاليًا، لكي يكون الناتج النهائي بعد عمليات الانتخاب الطبيعي والانقراض، هذا الحدد الحالي البالغ مليونين تقريبًا، علمًا بأن النظرية لم تستطع تفسير ظهور العدد الحالي من الأحياء عن طريق الصدفة؛ فإن هذا الادعاء يصلح لنسف النظرية وليس لإثباتها؛ إذ كيف يتسنى لهذا المفهوم الخالي من الحياة والشعور، والذي يطلق

(١) الله يتجلى في عصر العلم، من بحث بعنوان: الخلايا الحية تؤدي رسالتها، رسل تشارلز آرنست، (ص: ٨٣).

عليه "الانتخاب الطبيعي" أن يبقي على الصالح من الأحياء ويزيل الطالح؟ ليس في الإمكان إيجاد أي مرتكز صحيح لمثل هذا الادعاء(١).

يقول مدير معهد علوم الحياة في جامعة باريس البروفيسير "إتيان رابود": لم تعد أفكار "دارون" تبدو صحيحة؛ ذلك لأنه لا وجود للانتخاب الطبيعي في صراع الحياة، بحيث يبقى الأقوياء ويزول الضعفاء، فمثلًا: ضب الحدائق يستطيع الركض بسرعة لأنه يملك أربع أرجل طويلة، ولكن في الوقت نفسه هناك أنواع أخرى من الضب له أرجل قصيرة، حتى ليكاد يزحف على الأرض، وهو يجر نفسه بصعوبة، أما الثعبان الأعمى، فليست له أرجل بالمرة، فهذه الأنواع الثلاثة من الزواحف تملك البنية الجسدية نفسها، وتتناول الغذاء نفسه، وتعيش في البيئة نفسها، فلو كانت هذه الحيوانات متكيفة لبيئتها لوجب عدم وجود مثل هذه الاختلافات بين أجهزتها، فضب الحدائق في أوضع أفضل على الرغم من تماثل الغذاء والبيئة، ويبدو كأنه يملك قابلية أكثر للعيش، أما الأنواع الأخرى فإنها لم تمح، ولم تزل من الوجود، على الرغم من الصعوبات التي تواجهها من جراء ضعف بعض أعضائها، بل استمرت في الحياة والتكاثر، فلا نجد في المثال أي دليل أو إشارة للادعاء بأن الأقوياء يتكيفون للحياة ويبقون، وأن الضعفاء يزولون نتيجة ضعفهم وعجزهم(٢).

ويقول "جين روستند" عضو الأكاديمية الفرنسية للعلوم، وعميد علماء البيولوجيا البارزين: إن نظرية التطور التقليدية قد غدت الآن شيئًا ماضيًا، وأنه لا يجوز تفسير التطور بمثل هذه التعبيرات السطحية التافهة، كاصطفاء الطبيعة للجنس الأصلح، لمجرد أن علماء البيولوجيا قد أخفقوا في إثبات ما إذا كان بالمستطاع التأثير على تغير الأجناس، أو التحكم به، أو خلقه عن طريق العملية نفسها؛ فإذا كانت الزرافة ذات العنق الطويل هي نتاج الاصطفاء الطبيعي، فكيف يكون الحال

(١) ينظر: دارون ونظرية التطور، (ص: ١٨).
(٢) ينظر: دارون ونظرية التطور، (ص: ١٩).

مع الخروف الذي لا يزيد طول رقبته عن بضع بوصات؟ أليست الزرافة والنعجة بنات عم تمامًا، وتكادان تكونان أختين في المملكة الحيوانية؛ فكلاهما من أصل واحد، فكيف يمكن بقاء بنتي عم، كل منهما أصلح للبقاء من الأخرى، إحداهما بسبب طول عنقهما، والأخرى بسبب قصر ذلك العنق؟

وكيف يمكن تفسير مسألة قرونها، والتي تدعي النظرية أن القرون نمت بشكل عفوي، وحينما ثبتت فاعليتها للحيوان في صراعه من اجل الحياة، أخذت الطبيعة تصطفي الحيوانات ذات القرون، وتفضلها على غيرها، التي جعلت تنقص تدريجيًا، ولكن هل هذا هو الواقع؟ أن هناك خرافًا قرعانًا من غير قرون، بنفس عدد الخراف القرناء تقريبًا، فأيهما أصلح للبقاء؟[1].

تفترض النظرية أن جميع الكائنات الحية، التي كانت تعيش على الأرض قد نشأت من أصل واحد، أو بضعة أصول، وأن الثغرات المختلفة التي حدثت لها، قد جعلتها تتحول من كائنات بسيطة التركيب إلى كائنات أخرى أكثر تعقيدًا، وقد بدت منذ اللحظة الأولى اعتراضات ثلاثة على هذه الفرضية:

الأول: عدم مشاهدة أي ارتقاء من أي نوع كان في الأحياء الأرضية، منذ عهد ألوف عديدة من السنين.

الثاني: عدم وجود الصور المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب التسلسل، كأن يوجد مثلًا حيوان أرقى من القرد رتبة واحدة، وأدنى من الإنسان رتبة واحدة.

الثالث: طول الزمان اللازم لحصول الترقي بين الأحياء[2].

فالنظرية تحاول أن تثبت أن التطور الداروينى قادر على إحداث تغير بيولوجي ذي قيمة، ولكن عند إجراء تحليل دقيق للمنشورات التقنية، التي تخص العديد من الأمثلة المناقشة، تكشف أن هذه الادعاءات غير صحيحة على الإطلاق؛ فلا يوجد

(١) ينظر: سقوط نظرية التطور، أنور الجندي، ط/ دار الاعتصام، (ص: ٩).
(٢) ينظر: سقوط نظرية التطور، أنور الجندي، (ص: ١٣).

أي مثال يدل على نشوء تغير بيولوجي واسع النطاق؛ فأغلب الأمثلة لا تبين إنتاج أنواع جديدة، باعتبار أن النوع يعرّف وفقًا للتعريف المعياري (مجموعة كائنات معزولة تناسليًا)، وبالتالي لا يوجد مثال واحد صحيح يثبت حدوث الانتواع[١] في الحيوانات؛ أي نشوء مجموعة حيوانية معزولة تناسليًا، بشكل تام[٢].

فحدوث تغيرات في الكائن الحي تبعًا لبيئته وحاجاته، ينتج عنها ظهور أنواع جديدة متكيفة مع البيئة وموافقة لها، هو أمر غير مطرد؛ بل توجد أنواع كثيرة من نفس السلالة الحيوانية، لها صفات مختلفة، مع انتسابها إلى نوع واحد، وبالتالي فإن القول بالانتخاب الطبيعي قول مضلل، لا دليل عليه، فضلًا عن مصادمته للواقع الحي.

ثالثًا: نقد نشأة الكون من الخلية

من الطبعي أن يكون وجو الخلية الحية دليل على وجود الصانع لها، وليس دليلًا على أن العالم نشأ منها بذاتها، أو عبر تطورها، يقول: تشارلز آرنست: «إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية، قد بلغت من التعقيد درجة يصعب علينا فهمها، وأن الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته، شهادة تقوم على الفكر والمنطق؛ ولذلك فإنني أومن بوجد الله إيمانًا راسخًا»[٣].

إن الهوة التي تفصل بين الخلية والخلية، وبين العناصر غير الحية هوة عميقة، حتى إن أحسن المختبرات تجهيزًا غير قادرة على خلق خلية بسيطة من الجماد؛ بل إن التجارب تثبت أنه لا بد للعناصر من أن تخضع لقوة مدبرة؛ لكي تنتج مادة حية، ومن الخطأ الظن بأن الخلية شيء بسيط، وأنه بالمستطاع أن تنبثق عن المادة غير الحية بسهولة، ومن غير يد القدرة.

---

(١) معنى الانتواع: ظهور الأنواع الجديدة في العزلة التكاثرية. ينظر: الانتواع الخادع – خرافة ملاحظة التغير التطوري على نطاق واسع، كيسي ليسكين، ترجمة: د. سلام المجذوب – د. محمد القاضي، ط/ مركز براهين، الناشر: دار الكاتب للنشر والتوزيع، ط/ ١، ٢٠١٦م، (ص: ٨).

(٢) ينظر: المرجع السابق، (ص: ٩، ١٠).

(٣) الله يتجلى في عصر العلم، من بحث بعنوان: الخلايا الحية تؤدي رسالتها، رسل تشارلز آرنست، (ص: ٨٣).

كتبت مجلة "لوك" في عددها الصادر في ١٦ يناير ١٩٦٢م، تقول: إن الخلية لا تقل تعقيدًا عن مدينة "نيويورك"، ويقول العالم بالأحياء الألماني "فون برتالانفي": إن الإلمام بتفصيل النظام الفيزيائي الكيماوي لأبسط خلية يفوق طاقتنا.

وقال العالم بعلم الحيوان الأستاذ في جامعة كمبردج "سير جيمس غري": إن الجرثومة هي أشد تعقيدًا من أي نظام جمادي يعرفه الإنسان، ولا يوجد مختبر في العالم يمكن أن يوازي في نشاطه الكيماوي أصغر جهاز حي.

وقال الأستاذ "بونر" في كتابه: (أفكار علم الأحياء): إن الخلية وحدة عجيبة التركيب من حيث التطور، ويبدو لنا أنه من الأسهل أن نتصور تحول خلية وحيدة إلى نبات أو حيوان معقد، من أن نتصور مجموعة من المواد الكيماوية تتحول إلى خلية، هذا وإن الدراسة البدائية للتطور قد هبطت إلى رتبة الظنون العلمية[١].

إن الخلية مركب صغير جدًا، ومعقد غاية التعقيد، ومن أجزائها: البروتين، وهو مركب كيماوي من خمسة عناصر، هي: الكربون، والهيدروجين، والنتروجين، والأوكسجين، والكبريت، ويشمل الجزيء البروتيني الواحد أربعين ألفًا من ذرات هذه العناصر، وفي الكون أكثر من مائة عنصر كيماوي، فأي نسبة في تركيب هذه العناصر يمكن أن تكون في صالح قانون الصدفة؟ أيمكن أن تتركب خمسة عناصر من هذا العدد الكبير؛ لإيجاد الجزئ البروتيني، بصدفة واتفاق محض؟[٢].

فـــ "النيرون" أو الخلية العصبية الصغيرة هي خير مثال على تعقيد الخلية، ودماغ الإنسان الواحد يحتوي على ما لا يقل عن عدة مليارات من هذه الخلايا، والأبحاث الأخيرة أثبتت أن النيرون أشد تعقيدًا من حاسبة إلكترونية؛ فلو اخترع عالم آلة ذات نظام فائق التعقيد بعمل البرمجة الالية، ولا تقيس إلا جزءًا واحدًا من

(١) ينظر: خلق لا تطور، (ص: ٣٧، ٣٨).
(٢) ينظر: الإسلام يتحدى: وحيد الدين خان، (ص: ٨٧)، الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين، من بحث: نشأة العالم هل هو صدفة أو قصد، فرانك آلن، (ص: ١٥).

أربعين جزءًا من المليمتر، أفلا نعتبر أن هذا العمل عمل رائع؟.

ثم لو قام من يدعي بأن هذه الآلة المنظمة قد أوجدت نفسها بنفسها، وأنها انبثقت عن طريق التطور، من غير أن يصنعها عقل مفكر، فهل كان يصدقه أحد؟[١].

إن كل خلية من الخلايا إنما هي جهاز معقد، يقوم بطريقته الخاصة بجميع الوظائف المعقدة الضرورية للحياة، وتؤدي كل خلية من الخلايا وظائفها الحيوية بدرجة من الدقة يتضاءل بجانبها أقصى ما وصل إليه الإنسان من دقة في صناعة الساعات الدقيقة، وبمناسبة الحديث عن الساعات، لا يمكن أن يتصور العقل البشري أن آلة دقيقة كالساعة، قد وجدت بمحض المصادفة، دون الاستعانة بالعقل المفكر واليد الماهرة، فإذا تساءلنا عن الخلية الحية، كيف اتخذت هذه الوحدة المجهرية النشطة العجيبة صورتها، وكيف بدأت حركتها، فإنه يستحيل علينا أن نفسر كل ذلك مالم نسلم، عن طريق العقل والمنطق، أن وراء كل ذلك عقلًا وتدبيرًا، هذا العقل، وهذا التدبير، وتلك القوة، التي تعجز عنها المادة العاجزة عن التفكير والتدبير، ليست إلا مظهرًا من مظاهر قوة الله، وحكمته وتدبيره[٢].

لقد حاول أحد الرياضيين الشهيرين (السويسري تشارلز يوجين جواي) أن يستخرج هذه المادة (أو الخلية الأولى) عن طريق الرياضة، فانتهى في أبحاثه إلى أن الإمكان المحض في وقوع الحادث الاتفاقي، الذي يؤدي إلى خلق كون، إذا ما توفرت المادة، هو ١٠÷١٦٠ (أي: ١٠× ١٠ مائة وستين مرة)، بمعنى إضافة مائة وستين صفرًا إلى جانب عشرة، وهو عدد هائل لا يمكن وصفه في اللغة.

كما أن إمكان حدوث الجزيء البروتيني عن صدفة، يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة عن المادة الموجودة الآن في سائر الكون، كما أن هذه العملية تحتاج

(١) خلق لا تطور (ص: ٣٨، ٣٩).
(٢) الله يتجلى في عصر العلم، من بحث بعنوان: الخلايا الحية تؤدي رسالتها، كتبه: رسل تشارلز آرنست، (ص: ٨١، ٨٢).

زماناً أكثر من ٢٣٤÷ ١٠سنة.

إن جزيء البروتين يتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية، التي لا بد أن تختلط مع بعضها بطريقة صحيحة، وإلا أصبحت سمًا قاتلًا، بدل أن تصبح موجدة للحياة، ويوجد أكثر من ٤٨÷١٠ صورة وطريقة تجتمع فيها هذه السلاسل، ومن المستحيل أن تجتمع بمحض الصدفة في صورة من هذه الصور التي لا حصر لها، حتى يوجد الجزيء البروتيني الذي يحتوي أربعين ألفًا من أجزاء العناصر الخمسة السابق ذكرها؛ فمن المحال عقلًا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تنبي جزيئًا بروتينيًا واحدًا.

إن هذا الجزيء البروتيني ذو وجود كيماوي، لا يتمتع بالحياة إلا عندما يصبح جزءًا من الخلية، فهنا تبدأ الحياة، وهذا الواقع يطرح أهم سؤال في بحثنا: من أين تأتي الحرارة عندما يندمج الجزيء بالخلية؟ ولا جواب عن هذا السؤال في أسفار المعارضين الملحدين.

أعد العالم الفرنسي "الكونت دي نواي" بحثًا وافيًا حول هذا الموضوع، وانتهى إلى أن مقادير الوقت، وكمية المادة، والفضاء اللانهائي، التي يتطلبها حدوث مثل هذا الإمكان، هي أكثر بكثير من المادة والفضاء الموجودين الآن[١].

فكيف يمكن حدوث مثل هذه العمليات المعقدة بدءًا من وجود الجزيء نفسه، بالصفة الصحيحة، وارتباطه بالخلية، ووجود قدر هائل من المادة، ثم وجود الحرارة اللازمة لهذا الاندماج، في مادة وزمان أكثر بكثير من مادة وعمر هذا الكون الذي نعيش فيه، فضلا عن كوكب الأرض الذي نشأت فيه الحياة بعد نشأة الكون بزمان متطاول؟

ثم إنه إذا كانت الخلية حصيلة التطور فلماذا لم تستمر في تطورها؟ أو هل

(١) ينظر: الإسلام يتحدى: وحيد الدين خان، (ص: ٨٧- ٨٩)، الله يتجلى في عصر العلم، من بحث: نشأة العالم هل هو صدفة أو قصد، فرانك آلن، (ص: ١٥، ١٦).

كانت هذه الآلة المعقدة كاملة بطريق المصادفة منذ يومها الأول؟ وهل نعرف آلة من صنع الإنسان لم يحتج بلوغها درجة الكمال سنوات من البحث والدراسة؟ إنه لم يحدث حتى الآن أن اخترع حتى أعظم الناس عبقرية آلة كاملة لا يمكن إدخال تحسينات عليها، في حين أن الخلية آلة كاملة، فهل من العلم في شيء ادعاء التطوريين الذين يزدرون الواقع، ويقولون بأن المواد غير الحية والمحرومة من الذكاء قد استطاعت أن تصنع ما لم تستطع أكثر العبقريات الإنسانية رفعة أن تصنعه(١).

وفي الحقيقة: إن نظرية التطور تعجز عن أن تفسر لنا تلك الاختلافات العديدة، التي نشاهدها في عالم الأحياء؛ ولكنها تشير جميعًا إلى وجود خالق حكيم، هو الذي جعل هذه الكائنات الحية قادرة على أن تتحمل ظروفًا غير الظروف التي نشأت في ظلها، وعلى أن تتلاءم مع هذه الظروف(٢).

لقد كان المشركون في عهد إبراهيم عليه السلام على درجة من العقل؛ لأنهم رفضوا واستبعدوا أن يكون الصنم الكبير، هو الذي قام بتكسير الأصنام الصغيرة، أما التطوريون المعاصرون فلديهم من الجرأة كي يعتقدوا أن المادة التي تملأ الكون تملك من العلم والقدرة ما يكفي لخلق الحياة، ودفعها في مسالك التطور، ويفرحون بهذا الاعتقاد، ويرمون كل من لا يؤمن بهذه الخرافة بتهمة الرجعية والتعصب، والبعد عن المعاصرة(٣).

وهذه شهادة أهل العلم الطبيعي من الغربيين أنفسهم؛ إذ يقول ممثلهم: «إن جميع ما في الكون يشهد على وجود الله ﷻ ويدل على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها، حتى باستخدام الطريقة

(١) ينظر: خلق لا تطور (ص: ٤٠).
(٢) الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين، من بحث بعنوان: درس من شجيرة الورد، كتبه: ميريت ستانلي كونجدن، (ص: ٢٦).
(٣) ينظر: دارون ونظرية التطور، (ص: ٦٣).

الاستدلالية، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة أيادي الله وعظمته، ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، ولكننا نرى آياته في أنفسنا، وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته»[1].

وصدق الله الخالق القدير إذ يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ۝٥٤ ﴾ [فصلت: ٥٣ – ٥٤].

خلاصة البحث:

لقد ثبت حدوث هذا الكون بالأدلة العلمية الحديثة، ونقد القول بالصدفة وقسيمها التطور، ولا نكاد نجد اليوم أحدًا يقول بأزلية الكون إلا الملحدين، وهنا يتجلى الصراع بين العلم والكهنوت الإلحادي، بين المعطيات العلمية والدوغما[2] الإلحادية،، فالقضية الحقيقية هي دين إلحادي كهنوتي وثني ودغمائي، يتشرب قلب الملحد، حتى صار مع الوقت عقيدة يبشر لها الملحد ويدعو إليها.

فلا يوجد ملحد إلا وهو يؤمن بقدم العالم وأزليته، مع أنه أمر لم يثبت علميًا بأي شكل من الأشكال، لكنه الدين الإلحادي الجديد؛ ولذا اعترف الفيزيائي الملحد "ستيفن واينبرج) أنه كان يتمنى نظرية الثبات الكوني الأزلي؛ لأنها أكثر جاذبية، وأبعد عما نادت به الأديان.

ويقول الفيزيائي "دينيس شياما" لم أدافع عن نظرية الكون المستقر لكونها صحيحة، بل لرغبتي في كونها صحيحة، ولكن بعد أن تراكمت الأدلة تبين لي أن اللعبة قد انتهت.

---

(١) ينظر: الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين، ما وعاه صاحب البستان، وولتر إدوارد لاميرنس، (ص: ٧٧، ٧٨).

(٢) Dogmatism، كلمة يونانية تعني: الجمود العقائدي مذهبًا أو رأيًا، وهو نهج فكري يقوم على التزمت، والإيمان المطلق بامتلاك الحقيقة. ينظر: موقع علم الوجود، تاريخ الاطلاع: ١٢/٥/ ٢٠١٣م، رابط الموقع: https://ontology.birzeit.edu/term.

وبنفس الشيء اعترف "أنتوني فلو" فليسوف الإلحاد في القرن العشري قائلًا: يقولون إن الاعتراف يفيد الإنسان من الناحية النفسية، وأنا سأدلي باعترافي: إن نموذج بداية الكون شيء محرج جدًا بالنسبة للملحدين؛ ذلك لأن العلم أثبت فكرة طالما دافعت عنها الكتب الدينية.

فبعد كل ما سبق سيظل الكهنوت الإلحادي هو المسيطر، والدوغما الإلحادية هي الصوت الأعلى رغم العلم، ورغم الرصد، فالأمر عندهم دين(١)، وعقيدة، وليس علمًا، ولا يقينًا، ولا تجربة، ولا تطورًا، بل محض هوى وتشهي.

إن الثابت الذي لا يمكن الشك فيه هو أن هذا الكون الفسيح، تامَ الضبط، مطردَ النظام، دقيقَ الصنعة، مثيرَ الدهشة والإعجاب، لا يمكن أن يكون قد وجد بلا سبب، أو أوجد نفسه بنفسه؛ فإن ذلك مردودٌ في العقل، منقوضٌ بالبداهة والضرورة المنطقية، مخالفٌ للفطرة السليمة، التي تأبى إلا تسند الخلق للخالق، وتقر بالصنعة للصانع؛ فليس من المعقول أن ننسب أبسط المخترعات لأصحابها، ونقر بالفضل للعلماء في اكتشافاتهم العلمية، ثم نتخيل أن عقولهم هذه من صنع نفسها، أو من فعل الطبيعة الصماء؛ ففاقد للشيء لا يعطيه؛ فهل تمنح أو تخلق الطبيعة الجامدة الحياة في الأجسام الحية المعقدة؟، وهل في إمكانها أن تنظم هذا الكون العملاق، هذا النظام المطرد، الذي يسير كل شيء فيه على قانون ونسق لا يتغير، ولا يحدث فيه أي نوع من الخلل أو الاضطراب، يؤدي به إلى نهايته وعدمه؟، كيف وهو قائم شاهد على عظمة البدء، ومحفوظ باستمرار، إلى أن يقضي خالقه أمرًا كان مفعولًا، بزواله أو تبديله إلى كون آخر؟

والأدهى من ذلك من يدعي أن هذا الوجود خرج من العدم بنفسه، أو بلا سبب! إن هذا لشيء عجاب!.

(١) ينظر: عيادة الملحدين، د. هيثم طلعت، (ص: ٢٣، ٢٤).

نتائج البحث:

ويصل بنا البحث إلى منتهاه، فنستخرج منه النتائج التالية:

١- القول بأن أصل الوجود مادة أو مواد قديمة، لا دليل عليه من عقل أو علم، ويتنافى مع مبدأ السببية.

٢- القائلون بالقدم الزماني والحدوث الذاتي للعالم من فلاسفة الإسلام، الخلاف معهم لفظي لا معنى؛ فهم يسندون وجوده لله، وليس لنفسه.

٣- القول بالفيض محدثٌ في دين الله، ويتنافى مع الخلق من عدم، ويؤدي لوحدة الوجود، ونفي القصد والاختيار، ولو ادعى أصحابه نسبة الخلق لله على سبيل الطبع.

٤- بطلان القول بأن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد، من ابن رشد والمتكلمين على السواء.

٥- القول بالصدفة قديم حديث، من وحي الأسطورة والخيال، وأصحابه لا يجدون غيره لتبرير إلحادهم، وإنكارهم لوجود الله؛ فالبديل الوحيد هو القول بحدوث العالم، ونسبته لمبدأ وسبب أول، هو الخالق بعلم وقدرة وتقدير، وهو ما يهربون منه ويفرون.

٦- القول بالصدفة يتنافى مع قانون الصدفة نفسه، ومع مقررات العلم الحديث، والقواعد الرياضية، والضرورة المنطقية، وحساب الاحتمالات.

٧- لا بد قبل القول بالصدفة من وجود الزمان والمكان، حتى تعمل الصدفة دورها؛ أما وجودها قبل وجودهما فهذا عبث؛ لاستحالة وجود الشئ قبل ظهور سببه؛ فيستحيل عقلًا القول بالصدفة في لعبة النرد قبل وجود زهر النرد نفسه، والمكان الزمان الذي سيرمى فيه.

٨- مشكلة بعض القائلين بالتطور أن هناك تيارًا داخله يأخذ بالعشوائية والصدفة في بعض آليات النظرية، ويفسح المجال لبناء صورة عبثية فوضوية

للعالم، بلا شاهد من حجة أو دليل كان؛ فالعلاقة قوية بين القول بالتطور والإيمان بالصدفة.

٩- القوانين والنظريات العلمية الحديثة، كالقصور الذاتي، والقانون الثاني للديناميكا الحرارية، والانفجار الكبير، تنسف القول بقدم العالم، وبقاء المادة، وعدم أوليتها.

١٠- اعتماد نظرية التطور في بعض مقرراتها على الاتفاق والمصادفة يقضيان على مصداقيتها، ويضعانها في مظان الاتهام دائمًا.

١١- الانتخاب الطبيعي نقطة ضعف في النظرية؛ فقد ثبت عدم اطراده، واختلاف النوع الواحد في صفاته برغم الاتفاق في الظروف البيئية، والموافقة لها.

١٢- المادة الجامدة لا تتحرك بذاتها، فلا يصدر منها خلية حية، ولا ميتة، والخلية نفسها معقدة، فأحسن المختبرات غير قادرة على خلق خلية واحدة من الجماد؛ وأثبتت التجارب أنه لا بد للعناصر من أن تخضع لقوة مدبرة؛ لكي تنتج مادة حية.

١٣- النيرون، أو الخلية العصبية الصغيرة معقدة غاية التعقيد، ويستحيل أن يوجد عنها خلايا أخرى؛ وإمكانية حدوث هذا رياضيًا يمثل عددًا هائلًا لا يمكن وصفه، كما يتطلب مادة عظمى لا يتسع لها هذا الكون.

١٤- الإنسان بكل ما أوتي من علم وتكنولوجيا، يبدأ باكتشاف بسيط، ثم تتوالى التحديثات عليه، أما الخلية الحية فقد وجدت كاملة لا تحتاج لتحديث، وهذا عنوان كمال الخلق لله ﷻ.

١٥- رفض القول بالخلق لدى بعض العلماء والمفكرين الملحدين ليس لقيام الدليل على قدم العالم، بل لأن البديل هو الاعتراف بوجود الله، وهو ما يفرون وينفرون منه أشد النفور.

١٦- ثبوت حدوث الكون واستحالة أزليته بالأدلة والشواهد والقوانين العلمية الحديثة، ولا نكاد اليوم نجد أحدًا يقول بأزلية الكون إلا الملحدين؛ فالقضية في النهاية هي قضية إلحاد ديني، وليست قضية علم، أو ثبوت واقعي؛ لأن الاثنين ينفيان ولا يثبتان قدم العالم.

ثبت بأهم المراجع

أولًا: القرآن الكريم

ثانيًا: كتب العلوم والفلسفة والمعارف العامة

١. إحصاء العلوم، ت/ د. علي بو ملحم، ط/ دار ومكتبة الهلال، ط/١، ١٩٩٦م.

٢. آراء أهل المدينة الفاضلة، قدم له وعلق عليه وشرحه د. على بو ملحم، ط/ دار ومكتبة الهلال، ط/١، ١٩٩٥م.

٣. الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، ترجمة: ظفر الإسلام خان، مراجعة: د. عبد الصبور شاهين، الناشر: مكتبة الرسالة، ب ت.

٤. الإشارات والتنبيهات، ابن سينا، ت/ د. سليمان دنيا، ط/ دار المعارف، ط/٢.

٥. الانتواع الخادع – خرافة ملاحظة التغير التطوري على نطاق واسع، كيسي ليسكين، ترجمة: د. سلام المجذوب – د. محمد القاضي، ط/ مركز براهين، الناشر: دار الكاتب للنشر والتوزيع، ط/ ١، ٢٠١٦م.

٦. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥هـ)، ت/ محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط/ دار إحياء التراث العربي، ط/١ – بيروت – ١٤١٨هـ.

٧. أيقونات التطور علم أم خرافة، د. جوناثان ويلز، ترجمة: د. موسى إدريس، د. أحمد ماحي، د. محمد القاضي، ومراجعة وتقديم: عبد الله بن سعيد الشهري، ط/ مركز براهين، الناشر: دار الكاتب للنشر والتوزيع، ط/١، ٢٠١٤م.

٨. براهين وجود الله "في النفس والعقل والعلم"، د. سامي عامري، الناشر: تكوين للدراسات والأبحاث، السعودية، ط/١، ١٤٤٠هـ، ٢٠١٨م.

٩. تاريخ الفلسفة العربية، د. جميل صليبا، الناشر: الشركة العالمية للكتاب، ١٩٨٩م.

١٠. تاريخ الفلسفة اليونانية من بدايتها حتى المرحلة الهللنسية، د. محمد عبد الرحمن مرحبا، الناشر: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط/١، ١٩٩٣م.
١١. تاريخ الفلسفة اليونانية، وولتر ستيس، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، الناشر: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط/١، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.
١٢. تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد – القاهرة، ط/٢، ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م.
١٣. تاريخ الفلسفة في الإسلام، ت ج، دي بور، ترجمة وتعليق: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط/ مكتبة النهضة المصرية، ط/٥.
١٤. التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، ت/ إبراهيم الأبياري، ط/ دار الكتاب العربي، ط/١، – بيروت – ١٤٠٥هـ.
١٥. تهافت التهافت، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد (ت: ٥٩٥هـ)، ت: د. سليمان دنيا، ط/ دار المعارف، ط/٣.
١٦. تهافت الفلاسفة، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ)، ت/ د. سليمان دنيا، ط/ دار المعارف، القاهرة – ط/٦.
١٧. الجديد في الانتخاب الطبيعي (بيولوجيا) ريتشارد دوكنز، ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢م.
١٨. حكمة الغرب، برتراند رسل، ترجمة: د. فؤاد زكريا، ط/ عالم المعرفة، عدد ديسمبر ١٩٨٣م.
١٩. حوار بين الفلاسفة والمتكلمين، د. حسام الدين الآلوسي، ط/ مطبعة الزهراء، بغداد –العراق – ط١، ١٩٦٧م.

٢٠. خرافة الإلحاد، د. عمرو شريف، الناشر: نيو بوك للنشر والتوزيع – القاهرة – ط/٩، ٢٠١٨م.
٢١. خلق الإنسان بين العلم والقرآن، د. حمد الرقعي، الناشر: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع – ليبيا – ط/١، ١٤٢٥هـ.
٢٢. خلق الكون من العدم والانفجار الكوني الكبير، هارون يحيى، منتدى الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابط الموقع: https://www.iijazforum.org/sample-. تاريخ الاطلاع: ٢/٦/٢٠٢٣م.
٢٣. خلق لا تطور، الإنسان ابن آدم، وليس ابن قرد، تأليف: فريق من العلماء، عربه بتصرف: د. إحسان حقي، ط/ دار النفائس، ب ت.
٢٤. دارون ونظرية التطور، شمس الدين آق بلوت، ترجمه عن التركية: أورخان محمد علي، الناشر: دار الصحوة – حلوان – القاهرة، ١٩٨٦م.
٢٥. رجال عاشوا للعلم، جيمس نيومان، ميشيل ويلسون، ترجمة: أحمد شكري سالم، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠٠١م.
٢٦. رحلة عقل، د. عمرو شريف، تقديم: د. أحمد عكاشة، الناشر: مكتبة الشروق الدولية، ط٦، ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م.
٢٧. رسالة الرد على الدهريين، جمال الدين الأفغاني، ترجمة: الشيخ محمد عبده، ت/ د. أحمد ماجد، ط/ دار المعارف الحكمية، – بيروت – لبنان – الناشر: مكتبة مؤمن قريش، ط/١، ١٤٣٨هـ – ٢٠١٧م.
٢٨. سقوط نظرية التطور، أنور الجندي، ط/ دار الاعتصام.
٢٩. السياسة المدنية، للفارابي، د. علي بو ملحم، الناشر: دار ومكتبة الهلال،ب ت.
٣٠. الشفاء، ابن سينا، قسم الإلهيات، ت/ الأب جورج قنواتي، سعيد زايد، راجعه/ د. إبراهيم مدكور، ط/ وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

٣١. شموع النهار، إطلالة على الجدل الديني الإلحادي المعاصر في مسألة الوجود الإلهي، عبد الله بن صالح العجيري، الناشر: تكوين للدراسات والأبحاث، ط/٣ – السعودية – ١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م.
٣٢. الطبيعة في الفيزياء المعاصرة، فيرنر هايزنبرج، ترجمة: د. أدهم السمان، الناشر/ دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط/٢، ١٩٩٤م.
٣٣. طريق الفيلسوف، جان فال، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، ط/ مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٧م،
٣٤. عالم الصدفة، بول ديفيس، ترجمة فؤاد الكاظمي، مراجعة: د. خالد ناجي، الناشر: دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ط/١، ١٩٨٧م.
٣٥. عيادة الملحدين، د. هيثم طلعت، الناشر: دار اليسر – القاهرة – ط/١، ١٤٣٨هـ – ٢٠١٧م.
٣٦. عيون المسائل، للفارابي، ضمن كتاب الثمرة المرضية في المسائل الفارابية، ت/ د. عماد نبيل، الناشر: دار الفارابي – بيروت – لبنان، ط/١، ٢٠١٢م.
٣٧. غاية المرام في علم الكلام، أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي
٣٨. فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد (ت: ٥٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، ط/ دار المعارف، ط/٢.
٣٩. فصوص الحكم، أبو نصر الفارابي، ضمن كتاب الثمرة المرضية في المسائل الفارابية، ت/ د. عماد نبيل، الناشر: دار الفارابي – بيروت – لبنان، ط/١، ٢٠١٢م.
٤٠. الفلسفة الإسلامية في المشرق، د. فيصل بدير عون، الناشر: مكتبة الحرية الحديثة، ١٩٨٢م.

٤١. الفلسفة الإسلامية، د. أحمد فؤاد الأهواني، ط/ دار القلم، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، **١٩٦٢م.**
٤٢. الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، د. أميرة حلمي مطر، ط/ دار المعارف، ١٩٨٨م.
٤٣. فلسفتي كيف تطورت، برتراند رسل، ترجمة: عبد الرشيد صادق، مراجعة: د. زكي نجيب محمود، ط/ مكتبة الأنجلو، ١٩٦٠م.
٤٤. فمن خلق الله، "نقد الشبهة الإلحادية: إذا كان لكل شيء خالق، فمن إذا خلق الله؟ في ضوء التحقيق الفلسفي والكشف الكوسمولوجي"، د. سامي عامري، الناشر: تكوين للدراسات والأبحاث، السعودية، ط٢، ١٤٣٨، ٢٠١٧م.
٤٥. قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة/ فؤاد أندراوس، مراجعة: علي أدهم، ط/ دار الجيل – بيروت – ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
٤٦. قصة الفلسفة، ول ديورانت، ترجمة: أحمد الشيباني، الناشر: دار القارئ العربي، ط/٢، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.
٤٧. كتاب الكندي في الإبانة عن العلة الفاعلة القريبة للكون والفساد، أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي، ضمن رسائل الكندي الفلسفية، ت/ د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط/ دار الفكر العربي، ١٣٦٩هـ – ١٩٥٠م.
٤٨. الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد (ت: ٥٩٥هـ)، ت/ د. محمد عابد الجابري، الناشر: مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – لبنان، ط/١، ١٩٩٨م.
٤٩. لا شيء بالصدفة، العلاقة الممكنة بين الإيمان ونظرية التطور، أحمد خيري العمري، الناشر: عصير الكتب للنشر والتوزيع.

٥٠. الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعيات الأرض، أشرف على تحريره: جون كلوفر مونسيما، ترجمة: د. الدمرداش عبد المجيد سرحان، راجعه وعلق عليه: د. محمد جمال الفندي، ط/ دار القلم – بيروت – لبنان، ب ت.
٥١. المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية، تحرير: لجنة العلوم الاجتماعية والفلسفية، د. إبراهيم مدكور، وآخرون، الناشر: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية – القاهرة – ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
٥٢. المعجم الفلسفي، د. جميل صليبيا، ط/ دار الكتاب اللبناني– مكتبة المدرسة – بيروت – لبنان، ١٩٨٢م.
٥٣. مفهوم السببية بين المتكلمين والفلاسفة، د. جيرار جهامي، ط/دار المشرق، ط/٢، ١٩٩٢م.
٥٤. موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب، مجموعة من المؤلفين، قدم له الرئيس/ شارل حلو، إعداد/ روني إيلي ألفا، مراجعة د/جورج نخل، ط/دار الكتب العلمية، ط/١، سنة ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.
٥٥. موسوعة الفلسفة، د. عبد الرحمن بدوي، الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط/١، ١٩٨٤م.
٥٦. مولد الزمان، جون جريبن، ترجمة: د. مصطفى إبراهيم فهمي، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
٥٧. النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهيات، الشيخ الرئيس الحسين أبو على ابن سينا، نقحه وقدم له د/ ماجد فخري، ط دار الآفاق الجديدة – بيروت.
٥٨. نقد نظريات التطور، د. محمد برباب، موقع إعجاز القرآن والسنة، ديسمبر ٢٠١٩م، تاريخ الاطلاع: ٦/٢/ ٢٠٢٣م، رابط الموقع: https://quran-m.com.